مجلة البيان مكتبة شبكة
مشكاة الإسلامية
هدية لمكتبة شبكة مشكاة الإسلامية

مجلة البيان – العدد 9 ، ربيع الآخر 1408 / ديسمبر 1987م

الافتتاحية

نحن أسرى المصطلحات الغريبة

التحرير

أقول : نحن أسرى المصطلحات الغريـبـة ، وليس "الغربية" ، فليس الغرب هو الذي يؤثر في ثقافتنا الحديثة عن طريق تثبيت مفاهـيـمـه ، بـل الشــرق كذلك ، هذا مع اعتبارنا أن الثقافة الغربية والثقافة الشرقية (ونعني بها :الفكر الماركـسـي والاشـتـراكي السائد في دول أوربا الشرقية وروسيا ومن يدور في فلكها) وجهان لموروث واحد.

إن الـغــزو الثقافـي أخطر أنواع الغزو والسيطرة ، فهو ببساطة يجعل المغزو يتحرك وينشط بعيداً عـن هـيمـنـة الأساطيل والأسلحة المنظورة ، ظاناً أنه يتحرك مستقلاً حراً مالكاً زمام أمره ، ولكنه فـي حقـيـقـة أمره مسلوب الإرادة ، مسخر نشاطه وجهوده من أجل الأرض التي أنبتت الثقافة التي تـثـيـر إعـجـابه ، فـيرفــع لواءها ، ويسير في ظلها ، وقد يموت ويميت جموعاً لا تحصى في سبيل ذلك. وسواء عـلـيـنا : أعَلِمَ بذلك أم لم يعلم.

ومن أشد العناصر الثقافية أثراً وفتكاً في ثقافات -الشعوب قضية "المصطلحات".

فالمصطلح كلمة ، أو كلمتان ، أو ثلاث كلمات ، وقد لا تتعدى ذلك إلا في حالات نادرة ، ولكن هذه الكلمة قادرة على أن تفرغ العقول والقلوب وتملأها ، ولها مفعول السحر الذي يستعصى فهمه على المنطق وقوانين العقل.

وغالباً ما تكون بعيدة عن المحاكمات المحددة ، ملتبسة بأثر العواطف والغرائز ، وتكتسب -من خلال استعمالها بين شعب وشعب ، وظرف وظرف- ظلالاً ، ويصبح لها في مسيرها تضاريس ناتئة ، وانهدامات غائرة ، وتنعكس عليها آثار النفوس من حقد وحسد وضغينة وانتقام ، وتصرخ من بين حروفها الأهواء والعواطف الملتوية التي تغلف التواءها بكثير من الادعاء والتطاول وحب التغلب والسيطرة.

والمصطلح باختصار هو "حبة" أو "جرعة" سـحــريــة ، يتناولها فرد أو جماعة ؛ فتحول اتجاه تفكيره أو تفكيرهم من جهة إلى جهة -إن لم تفقده التفكير أصلاً- ، وقد يتسلل هذا المصطلح إلى العقل العام تسللاً ، كأن تطرحه جماعة أو شخص صاحب مصلحة أو هوى في شــيـوعــه وانتشاره ، فيطرح من خلال وسيلة عامة ككتاب أو إذاعة أو صحيفة أو مناهج دراسية..فيُلْتَقَط ويُستعمل ويشيع ، ولا يمضي وقت قصير حتى تضاف إلـيـه الـــشـــروح

والـحـواشـــي ، وتشذب انعكاساته الضارة عن طريق تزيينه بأساليب الحكماء والمنظرين، فتمتد جذوره في أرضٍ وفِد عليها ، ويبدأ يعطي ثماره : فكراً وافداً وثقافة هجينة.
وكتطبيق لهذه الرؤية، فلنتفحص نموذجاً واحداً من هذه المصطلحات الشائعة والتي تجري على الأقلام والألسنة هذه الأيام ، وهو كلمة "الرجعية".
ماذا تعني هذه الكلمة في أذهان مبتدعيها؟
وماذا تعني عند مردديها ، وخصوصاً في المجتمعات المسلمة؟
ومـا مـــدى الهوة بين مدلولها الأصلي ، من حيث الوضع ، ومدلولها في أذهان الناطقين بالعربية؟
وهل يمر هـــذا المصطلح في فـــترة شبابه ، أم أنه دلف إلى الشيخوخة التي ستودي به إلى الموت والاندثار ، وآذنت شمسه بالمغيب؟.
أما ما تعنيه هذه الكلمة :فأمامنا ما ورد في الموسوعة السياسية ؛ حيث تقول :
»هـي نـقـيـض الـتـقـدمــيـة (!)، ويطلق الشيوعيون واليساريون هذه الكلمة على الأحزاب والتيارات التي تنادي ببقاء المؤسسات القديمة على قدمها«(1).
وبـــنــــاء على هذا فإن هذا التعريف يبين لنا مَنْ وضع هذا المصطلح ، ومن روجه ، وهم (الشيوعيون واليساريون) ، ويطلقونه على خصومهم جملة.
والــشــيـوعــيــون وخصومهم، من حيث المبدأ والمنشأ، هم نتيجة لمجتمع وثقافة تختلف اختلافاً كبيراً عن مجتمعاتنا وثقافتنا ، وليس المجال مجال تفنيد آرائهم والرد عليهم. ولــكــن الــذيــن أدخلوا هذا المصطلح إلى ثقافتنا هم الذين تأثروا بتلك الأفكار ، ورأوا أن يحققوا عن طـريــق إشاعتها مآرب وغايات في نفوسهم ، في ظل مطاردة لكل ما هو أصيل، وهيمنة لكل ما هو غريب.
وقد كَثُرَ استخدام هذا اللفظ بعد خروج المستعمرين من البلاد العربية والإسلامية ، وتفرغت الشعوب لمواجهة تحديات البناء الداخلي ، فكان أن برز اتجاهان رئيسيان لوضع أسس هذا البناء :

الاتجاه الأول :

الذي يرى أن البناء لابد أن يعتمد أسساً نابعة من عقيدة الأمة (وهي الإسلام) ، والتي لولاها لما أمكن لها أن تحمل خصائص الأمة ، حيث إن الإسلام هو الذي جعل لها دوراً تاريخياً محورياً ، وبتجاهل هذه العقيدة ، أو القفز فوقها ، أو استجلاب عقائد موازية ؛ فإنه لا أمل في إصلاح ، ولا رجاء في الخروج من المأزق والمشاكل التي تعيق حركة هذه الأمة ، بل سيؤول أمرها من ضعف إلى ضعف ، ومن تمزق إلى انهيار واندثار.

وهذا الاتجاه ممثل في غالبية الشعوب الإسلامية مع اختلاف مستوياتها المعيشية ؛ ففيه الغني وفيه الفقير ، وفيه الذي حصل على قسط عال من الثقافة ، وفيه ذوو الثقافة المتوسطة ، وفيه أصحاب المهن الحرة...
ولو أن فرصة تتاح لاستقراء النفسيات والانتماءات لوجدنا أن غالبية هذه الشعوب ذات انتماء إسلامي يصعب إخفاؤه ، وإن تكلف بعض الناس إخفاءه تحت قشرة رقيقة من فعل عوامل شتى ، كالجهل والتجاهل الناتج عن الدعاية المضادة المستمرة ، وكالترهيب الواقع على كل من يفصح عن ارتباطه الحقيقي بهذا الدين مبدأ ومعاداً ، وكالخلط والتشويش المقنن الذي يقدم إلى عقول الناشئة عن طريق المناهج التعليمية.

والاتجاه الثاني :

على النقيض من الأول ، اتجاه إلى السيطرة على توجيه هذه الجموع بحجة أنها جموع قاصرة التفكير ، ولابد من استجلاب مبادئ "جديدة" لتحل محل عقائدها البالية ؛ ثم توصف هذه المبادئ المجلوبة بشتى الأوصاف الحسنة البراقة ، وتضفي عليها أنواع من التزيينات الموحية : كالتقدم ، والتطور ، والبناء ، والتنوير ، والتجديد ، والتحديث ، والعلمية ، والمنطقية ، ... الخ ، في حين تقذف المبادئ القديمة بأبلغ أنواع السباب والشتائم والأوصاف المقذعة مثل : الرجعية ، والغيبية ، والتخلف ، والجمود ، والتحجر ، والتقوقع ، و الظلامية ، والسلبية ، والتعصب ، ... الخ.
ومن خلال تتبع استخدام لفظ الرجعية يلاحظ : أن هذا اللفظ يطلق دائماً على شريحة من المجتمع تزداد ملامحها تحديداً كل يوم، ويرتبط أفرادها فيما بينهم برباط فكري واحد، ألا وهو انتماؤهم لعقيدة واحدة هي الإسلام ، ومن غير المسموح لهم أن يردوا على التهم الموجهة إليهم ، والقذف الساقط على رؤوسهم ، بطريقة متكافئة مع الطرق التي يتوجه منها إليهم الثلب والتنفير.
وهناك أمور مفروغ منها عند جميع الناس على اختلاف عقائدهم ، فليس من مسلم أو غير مسلم يرضى بأن تتوقف عجلة التاريخ عند نقطة معينة ، ولا أن يبقى النشاط الإنساني في مكان واحد ، وليس من مسلم يريد الرجوع بالناس إلى عصر الجَمَل بعدما ركبوا السيارة والطيارة والمركبات الفضائية ، وكذلك فإن الحملات الكلامية لا يمكن -لاعتبارات كثيرة- أن تتجه مباشرة وصراحة إلى دين الأمة إلى في حالات نادرة ، وفي أمكنة خاصة. وذلك لأن ما يترتب على هذا من مكاسب وإنجازات لا يتناسب مع الأضرار المتوقعة ، ولذلك فلابد من الالتفاف والمداورة بشن هذه الحملات على الأشخاص ، وتجريدهم من مكانتهم في النفوس ، وجعل صورهم تهتز في أنظار الناس من حولهم ، حتى لا يكون هناك مثل أعلى يمكن النظر إليه ، فيخلد الناس إلى اليأس ، ويألفون القنوط حينما لا يسمعون عمن يقول : "لا إله إلا الله محمد رسول الله"إلا كل سمعة سيئة ، ولا يعرفون عنه إلا الصورة المشوهة التي رسمها له خصومه ،

وتكون النتيجة لا فقدان الأمل بالأشخاص فقط ؛ بل فقدان المبرر للتمسك بهذا الدين من حيث هو ، إذ أنه دين صعب التطبيق ، مكبل للنشاط الإنساني ، داعٍ إلى الكسل والخمول. وتكون النتيجة النهائية أن هذا الدين هو المتسبب الأول والأخير في تخلف هذه الشعوب ، لذلك لابد من القضاء على أثره في النفوس بشتى الطرق.
ومن المستحسن -بعد أن حددنا ملامح من يُرْمَون بهذا الوصف- أن نشير إلى بعض السمات التي تربط بين من يستخدمونه.
فهناك قدر مشترك بين الجميع ، وهو: كراهية الإسلام والمسلمين بشكل عام.
وهذه الكراهية إما أن تكون متوارثة لأن أصحابها يعيشون عقدة العيش على هامش المجتمع الإسلامي.
وإما أن تكون مستحدثة نتيجة جهل أو تربية معوجَّة في دهاليز التبشير.
وإما أن يكون الدافع إليها النفاق والحرص على الدنيا من منصب ، أو مال ، أو امتيازات.
وهذا الصنف الأخير كثير بين صفوف المسلمين ، وهو أشد الأصناف أثراً وأكثرها وقاحة وإصراراً في حشر مصطلحات أسياده في ثنايا كلامه بمناسبة أو غير مناسبة ، وتكاد أهدافه القريبة وغاياته الشخصية تطل من بين ثنايا كلماته التي لا يريد بها بناء مبادئ تبقى وعقائد تترسخ ، فشتان ما بينه وبين العقائد الباقية ، والفرق بينه وبين الصنف الأول كالفرق بين الدعي الأفَّاق الوصولي وبين صاحب المبدأ.
وقد كانت الفترة الذهبية لاستخدام هذا المصطلح هي فترة الخمسينات والستينات ، وبدأ انحساره -إلا في أماكن قليلة- منذ مطلع العقد الثامن من هذا القرن ، وهذا يعنى أنه قد استهلك ، ومجه الناس ، وفقد أثره ، وذلك لشكهم وفقدانهم الثقة فيمن يستخدمه ، ولتجنيه وعدم صحته في إنفاقه على من يُرمى به.
وهاهنا لفتة لابد منها ، فمحاولة زرع المصطلحات في الكيان الثقافي للأمة الإسلامية ليست أمراً جديداً ، بل هو قديم. ومع ما نتج عن هذه المحاولات الملحة من نتائج سيئة إلا أن الفكر الإسلامي-بما فيه من أسباب المناعة- كان يلفظ كثيراً من هذه المصطلحات الغريبة ويسقطها بعدما تبين ما تُحدثه في كيان الأمة من أثر تخريبي ينعكس على كيانها المادي والفكري فرقة وبلبلة ، ويعمل على عدم امتلاكها القدرة لا على البناء ، ولا على دفع مسيرتها نحو المستقبل.
1- الموسوعة السياسية (كيالى - زهيري).

أخبار حول العالم

السودان يطرد وكالات غربية للإغاثة والتنمية

نيروبي -28 أيلول (سبتمبر) - رويتر

قال مسؤولو وكالات للإغاثة : إن الـسـودان أمـر ثلاث وكـالات أجنبية لـلإغاثة والتنمية بمغادرة البلاد خلال ثلاثة أسابيع قائلاً : إنه لم يـعـد هناك حاجة لخدمـاتـهـا . ولـكـن الـمـسـؤولـيـن قـالـوا : إن التلفــزيون السوداني ذكر أن أوامر الطرد صدرت لأن الوكالات انتهكت الأمن القومي للبلاد.

وقال السيد برنارد ويلسون المدير بـرابـطـة مـنـظـمات الموارد المسيحية التي تخدم السودان لرويتر : إن الرابطة تسلمت أمر الطرد أمس ، وجاء في الأمر: أن موقف الغذاء في السودان قد تحسن وأنه لا داعي لبقاء الرابطة.

وقال السيد ويلسون : إن الرابطة التي تعمل في السودان منذ عام 1972 , ستستأنف هذا القرار.

وقال المسؤولون : إن التلفزيون السوداني ذكر يوم السبت : أن الرابطة ومنظمة وورلد فيجن الأمريكية ومنظمة الاتحاد اللوثري العالمي يجب أن تغادر البلاد خلال ثلاثة أسابيع ؛لأنها انتهكت الأمن القومي.

وقال مدير الاتصالات بمنظمة وورلد فيجن جاكوب أكول : إن منظمته لم تتسلم بعد قرار الطرد، لكنه أعرب عن دهشته لأن الحكومة السودانية تعتبر المنظمة خطراً على الأمن.

وقال السيد أكول : لقد دعينا للقيام بمهمة ، والحكومة تشرف على جميع أعمالنا... وإذا كانوا لا يريدوننا في السودان فإننا ببساطة سنغادر البلاد.

وللوكالات الثلاث صلات مسيحية ، وكانت تعمل في جنوب السودان حيث يقاتل جيش تحرير شعب السودان القوات الحكومية منذ عام 1983.

ولم يتسن الاتصال بمسؤولي الاتحاد اللوثري العالمي للحصول على تعليقهم على القرار.

هجرة اليهود السوفييت ازدادت أكثر من أي وقت منذ 1981

جنيف -أول تشرين الأول (أكتوبر)- رويتر

ذكرت إحدى السلطات التي تهتم بشؤون الهجرة: أن الاتحاد السوفييتي سمح لما مجموعه (5.480) يهودياً بالهجرة عبر فيينا حتى الآن هذه السنة ، أي ضعفي أي رقم للمهاجرين في أي عام كامل منذ عام 1981.

وقالت اللجنة الحكومية للهجرة التي تتخذ من جنيف مركزاً لها : إن (699) يهودياً هاجروا في أيلول (سبتمبر) بالمقارنة مع (782) في آب (أغسطس) ،

وأكثر من خمس مرات من العدد الذي سمح له بمغادرة الاتحاد السوفييتي في أيلول (سبتمبر)1986 والبالغ (126) يهودياً.
وقد مر جميع المهاجرين اليهود عبر فيينا. وكان الاتحاد السوفييتي قد أعلن أنه سيخفف الأنظمة بالنسبة إلى هجرة اليهود ، غير أن الرقم لا يزال أدنى من رقم المهاجرين الذين سجل في عام 1979 , ويبلغ (51,330) يهودياً.
وقد تراجعت هجرة اليهود إلى (9 ,560) يهودياً في 1981 ، ولم يغادر في العام الماضي سوى(943) يهودياً ، والشهر الماضي توجه (171) من المهاجرين إلى إسرائيل مما رفع رقم الذين توجهوا إلى هناك هذه السنة إلى (1,351) يهودياً.

محكمة في تركيا تبرىء متظاهرين اعترضوا على منع الحجاب

28 أيلول - وكالات الأنباء :

برأت محكمة أمن الدولة في قونية 19 طالباً وطالبة كانوا قد أوقفوا بتهمة التظاهر للاعتراض على منع الحجاب ، وكان 16 من الذين حكم ببراءتهم من الطالبات.

التعليق :

عجيب أن يحاكم من يتهم بهذه التهمة أمام محاكم أمن الدولة ، بل الأعجب أن يمثل من يطالب بحريته في أن يرتدي من اللباس ما يتفق مع دينه وعقيدته أمام أي محكمة من أي نوع كانت. لقد تحولت محاكم أمن الدولة من محاكمة الجواسيس والخونة والذين ينشرون الفاحشة والفساد بين الناس إلى مطاردة المتمسكين بما أمرهم به ربهم ، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

الصين تقول: إن اليسارية كانت خطأً كبيراً

بكين -أول تشرين الأول (أكتوبر)- رويتر :

أعلنت الصين الشيوعية اليوم أن اليسارية "كانت أكبر خطأ فادح في تاريخها الذي بدأ منذ 38 عاماً ، وتعهدت بعدم التورط في صراع طبقي مرة أخرى.
وذكرت صحيفة الشعب الرسمية اليومية في مقال افتتاحي بمناسبة العيد الوطني :
إن الصين تقيم اشتراكية من نوع خاص بها ، عن طريق تطبيق "الحقائق العالمية للماركسية" على الظروف السائدة فيها.
وجاء في الصحيفة : إن التاريخ يعلمنا أن اليسارية كانت أكبر أخطائنا منذ عام 1949. إنها الخطر الأساسي.. ويجب علينا توجيه اهتمام خاص لمنعها ، لا يمكننا ولن نقوم بحملات سياسية للصراع الطبقي.

وكانت أكبر الحملات مرارة هي الثورة الثقافية للزعيم ماو تسي تونج خلال الفترة من 1966إلى 1976 ، عندما جرى اضطهاد ألوف الأشخاص وبينهم عدة زعماء حاليين ، وتم انتهاك القانون والنظام ، وتفشت الفوضى في الاقتصاد.

وجاء في المقال الافتتاحي أيضاً أنه يجب على الصين أن تواصل مناهضة "الليبرالية البورجوازية" -أي: الأفكار السياسية الغربية - ، وأن تتمسك بالاشتراكية وزعامة الحزب الشيوعي.

اقتراح :

اقترح مساعد وزير الدفاع الإسرائيلي ميخائيل ديكيل أن يطرد (1.400.000) فلسطينيّاً من الضفة الغربية وغزة إلى الأردن وباقي الدول العربية.

الغارديان 30/7/1987

بأقلام القراء

أمانة الله الغالية

محمد أبو زيد

لقد كانت الخلافة من الأمور العظيمة الجـلـيـلـة ، حيـث خلق الله الأرض مكاناً لها وأمر الإنسان وأهبطه إليها ليقوم بهذا الشأن الجلـيـل ويحمل هذه الأمانة الغالية على أسس من المنهج الإلهي المعصوم. قال تعالى : ((وَإذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْـمَـلائِــكَـةِ إنِّـي جَـاعِـلٌ فِـي الأَرْضِ خَلِيفَةً)) [البقرة:30] ، وكانت تعتور الأرض جولات الإيمان والكفر ، وكان الله سـبـحانه كلما انحرف الناس بهذه الخلافة عن نهجه النزيه القويم يرسل الأنبياء ليعيدوا إلـهـيـتـه على أرضه كما هي في سمائه ، ((وهُوَ الَذِي فِي السَّمَاءِ إلَهٌ وفِي الأَرْضِ إلَهٌ)) [الزخرف:84] ، وهذه سنة الله في خلقه ، كلما حادوا عن دينه ومنهج خلافته المراد من خـلـقـهـم وأمـسـى الـحـق غريباً معذباً على الأرض هبّت غارة الله مسرعة تلقف الكفر من جذوره لتنصر الحق المستـضـعـف وأهله المستذلين بما صبروا وتبرَّؤوا من الشرك وأهله.

وهاهو الرسول الكريم -صلى الله عليه وسلم- بعثه الله بهذه المهمة بعد أن محيت معالم خلافة التوحيد والعبودية لله وعاد الناس يستعبد بعضهم بعضاً.. يسنون قوانين ، ويضعون شرائع ما أنزل الله بها من سلطان.. وفي هذا الوسط البئيس بدأت دعوة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تصارع أمواج الكفر العاتي والإلحاد السافر والساخر من كل فضيلة.

وعانى المؤمنون في ذلك الحين بحراً من الذل والهوان ، وذاقوا أمرَّ ألوان العذاب ، ومع هذا ثبت المؤمنون على عقيدتهم وبقيت عزتهم بدينهم وثقتهم بوعد ربهم.

وتبقى المحن بازديادٍ حتى لا يثبت على هذا المنهج إلا العصبة المؤمنة المخلصة ، التي لم تتخذ بطانة من دونها ولا ولياً غير إلهها.. فتصوغ المحن هذه العصبة في قالب الرجولة لتزيدها صلابة وصبراً وضبطاً للنفس وزجراً لها عن أي محاولة لتبرير المداهنة للباطل أو التنازل عن أي صغيرة من الهدف والمنهج ، أو الرضى بجزء من الدين عن كله.. عندئذ تكون الجماعة المؤمنة أهلاً لحمل أمانة الله الغالية واستلام الخلافة في الأرض ، فيأذن الله لها بالتمكين لتمثل الصورة الحقيقية للخلافة التي يريدها الله سبحانه.

لقد أرادت قريش بعد موجتي التكذيب والعناد ثم التعذيب ، أرادت أن تنظر هل وصلت ضرباتها لداخل العصبة المؤمنة وهزت قلوب أفرادها أم لا؟ أو لعل قائدها يترك هذا الهدف الصعب والطريق الشاق الشائك المحفوف بالمكاره ، ويقبل بعروض منحطة كزوجة جميلة ومال وفير ومُلك علماني عظيم! وبالتالي تنتهي المعركة من الجولة الأولى ، ولا تكون العصبة المؤمنة أهلاً لاستلام الأمانة والمحافظة على طهارتها ونزاهتها المرهفة من نجس المشركين ، وتثبت أنها دون مرحلة التمكين في الأرض وعاجزة عن إعطاء الصورة الحقيقية والمرادة للخلافة بمنهجها الإلهي وحاكميتها الواحدة. لكن الرسول -صلى الله عليه وسلم- ثبت ورفض مداهنة الطاغوت أو الركون له ، ولم يطأطىء رأسه لتلك الإغراءات المنحدرة ، ولم يقبل منهم الملك أو الوزارة ثم يدعو إلى الله من خلاله.. لأن الخلاف مع الطاغوت جذري ولا تصلح معه الحلول الترقيعية التي عن طريقها تشترى الدعوات وتدفن في مهد طفولتها بعيدة عن أهدافها التي قامت من أجلها.

وقد خاض في هذا المعترك العفن كثير من أهل هذا الزمان ، فوقعوا بأحابيل الطواغيت ، وخسروا المعركة من الجولة الأولى ، وهي فترة الاستضعاف والابتلاء للتأهيل لاستلام أمانة الله الغالية.

وهكذا عرف النبي -صلى الله عليه وسلم- وصحبه الكرام قيمة هذه الدولة وصبروا لها ، ولم يهنوا أو يستكينوا أو يضعفوا ، ولم يستعجلوا النصر بطلبه من طاغوت على طاغوت ، فلم يستعينوا بغير الله ؛ فكانوا أهلاً للتمكين ، وأورثهم الله أرضه في المدينة ليقيموا فيها دولة الخلافة والنبوة ، فأبدلهم الله بعد الضعف قوة ، وبعد المهانة عزة.. وبعد الخوف أمناً ، بما صبروا على ولائهم لربهم وتبرئهم من الكافرين. قال تعالى : ((وَعَدَ اللَّهُ الَذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ولَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَذِي ارْتَضَى لَهُمْ ولَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً)) [النور:55].

وبقي المسلمون في هذا التمكين والتأييد من الله مدة بقائهم عادلين في الأرض ممثلين للصورة الصحيحة للخلافة التي أرادها الله على أرضه ، عارفين لقيمة هذه الدولة ، حريصين على حمايتها والذب عنها.

وهكذا تمر الأيام على المسلمين متحلِّين بهذا التمكين ، إلى أن بدأت قيمة الخلافة والدولة تتضائل في أذهانهم لموت الذين عانوا من أجلها وذاقوا مرارة التعذيب والصبر والقهر والذل حتى ظفروا بها.. مات الذين أشربوا العقيدة والمفاصلة والتميَّز في قلوبهم.. وبدأ تأييد الله لهذه الدولة يبتعد عنها بقدر ما تبتعد هي عن تمثيل الصورة الصحيحة للخلافة بمنهجها القويم وشريعتها العُليا ، إلى أن زالت أهليتهم للتمكين في الأرض ، فأخذ الله أمانته الغالية -المتمثلة بالخلافة- ليستدير التاريخ من جديد ، وتبدأ الأمة الإسلامية كما بدأ نبيها الكريم -صلى الله عليه وسلم- وصحبه ، تحاول وتنافح لتعود المعركة من جولتها الأولى ، جولة سيطرة الطاغوت الحاقد على رقاب المسلمين بكل ما تحويه من استضعاف وإذلال وتعذيب وتنكيل ؛ ليجتازوا مرحلة التأهيل الصعبة كما اجتازها سلفهم.
وهذا حال الأمة الآن ، تلطمها أمواج الكفر في كل مكان ، فتقتل من شبابها ، وتستحيي من نسائها ، وتضع الآلاف في السجون ، وتُخرج المتقين من أرضهم وديارهم لتضيق عليهم الواسع وتضطرهم للكفر أو المداهنة ، وليضعوا المسلمين على مفرق طريق مع عقيدتهم وأهدافهم.. وليغروهم بعد هذه اللطمات كما حاولوا أن يغروا نبيهم من قبل.. لكن هذا كله سيقوي عود الجماعة المسلمة ويجعلها بعد هذا الصبر والثبات مع كمال المفاصلة أهلاً لأن يمكِّنها الله في الأرض كما مكَّن نبيها بعد أن تثبت جدارتها على رعاية أمانة الله الغالية ...

إندونيسيا - فساد

14 أيلول (سبتمبر) - قالت وكالات الأنباء :

إن القوات المسلحة في أندونـيـسـيـا حـثـت الحكومة على اتخاذ إجراءات صارمة لمكافحة الفساد في البلاد.
وقال السيد سويجينج ويجايا المتحدث بـاسـم الـقـوات المسلحة في البرلمان للصحفيين : إن الجيش يريد أن يرى اتخاذ إجراء صارم للقضاء على الفساد بين المسؤولين.
وفي تعليقات شديدة اللهجة نشرتها اليوم صحيفة "انجـكـاتـان بـيـرسنجاتا" التي تصدرها القوات المسلحة ، وعدة صحف أخرى ، كشف السيد ويجايا عن أن الجيش اتخذ إجراءً صارماً لم يحدده ، ضد أفراد فيه ارتكبوا مخالفات. ولم يذكر تفاصيل أخرى.
ويشغل الجيش في أندونيسيا (100) مقعداً في البرلمان المؤلف من (500) مقعداً.

وجاءت تعليقات السيد ويجايا في إطار تركيز جديد على فساد مزعوم في البلاد. وقد دعا بعض المسؤولين إلى مطالبة جميع الوزراء وكبار موظفي الحكومة وأعـضـاء الـبـرلمان بإعلان موقفهم المالي قبيل تولي مناصبهم.
وفي آب (أغسطس) الماضي :نفى الرئيس سوهـارتـو علناً مزاعم اختلاس من صندوق خيري تديره زوجته.

التعليق :

هل إنـدونـيـسـيـا غـيـر مـثـيلاتها من دول العالم الثالث؟ وهل حكامها من صنف آخر غير الأصناف التي ابتليت بها ملايين المسلمين في العالم؟ وإذا كانت أندونيسيا بحراسة مبادئ "الـبـاتـشـاسـيلا" العتيدة قد فتحت أبوابها وجزرها لرياح التبشير النصراني من كل نوع، واحـتـضـنـت وأحيت كل العقائد والمفاهيم الوثنية هناك ، فمن سيسألها عن الفساد؟ ومن سيحاسبها عن الأموال التي تذهب إلى جيوب "المحاسيب"؟.
وإننا لبعد المسافة ، ولعدم معرفتنا باللغة الأندونيسية ، لا نعرف اللقب الذي أنعم به على مديرة "الـصـندوق الـخـيـري" هناك. ولكن إلى أن يتحقق لنا العلم بذلك فسوف نمنحها لقباً مما يحفل به تراثنا الحديث من ألقاب، مثل: "السيدة الأولى" أو "سيدة أندونيسيا الأولى" أو "الماجدة..." أو إن لم يعجبها لقب قادم من الشرق الأوســط فنحيلها على الجيران في الفلبين فقد أصبح عندهم لقب شاغر للتأجير ، نعني: [إميلدا ماركوس رقم (2)].

أدب وتاريخ

ابن الأثير ..
وموقفه من الدولة العبيدية
وبعض الدول المعاصرة لها

محمد العبدة

كنت أعلم أن للمؤرخ ابن الأثير موقـفـاً من الدولة العبيدية -التي تسمى بالفاطمية- يتعلق بتصحيح نسبهم إلى علي -رضي الله عـنـه- ، وهي القضية التي أثير حولها جدل كبير بين القدماء والمعاصرين ، وكنت أظن أن الأمـر يـتـعـلـق بـمـوضوع النسب فقط ، وهو شبيه بموقف ابن خلدون أيضاً ، وإن كانا قد خالفا في هذه المسالة أكثر علماء الأمة ومؤرخيها. ولكن من خلال قراءتي لأحداث القرنين الرابع والخامس في (الكامل) تبين لي أن ابن الأثير لا يصحح النسب فقط ، بل هو متعاطف مع هذه الدولة بـشـكـل عام ، فهو يمدح ملوكهم ويبرز محاسنهم ولا يذكر عيوبهم ، ويؤكد في كل مرة يترجم لأحـدهـم بـقـوله :"الخليفة العلوي" ، كأنه يريد أن يرسخ هذا في ذهن

القارئ ، ثم تبين لي أنه يغرق فـي مـدح بعض ملوك الدولة البويهية وأمراء الدولة الأسدية والحمدانية ، وهذه الدول والإمـارات كـلـهـا غير سنية.
ثم رجعتُ إلى حوادث المائة الأولى من الهجرة ، لأرى كيف عرض لموضوع الدولة الأموية والأحداث التي عاصرتها ، فتأكد لي هذا الاتجاه عنده.
ونـحـن لا نــريـــــد مناقشة ابن الأثير حول نسب العبيديين ، فقد كتب الكثير حول هذا الموضوع، وآراء الـعـلـــماء والمؤرخين الذين دحضوا نسبهم وكذبوهم فيه موجودة معروفة لمن أرادها ، ولكن سـنـكـتـفــي بذكر أعمالهم القبيحة التي لم يشر إليها هذا المؤرخ ولم يعلق عليها أو ينتقدها ، مع أنه نقد أعمال غيرهم من الملوك الذين هم أفضل منهم بكثير ، بل لا يقارنون بهم ، ومع أن ابن الأثير من أسرة علمية مشهورة ، فهو صاحب (أسد الغابة في معرفة الصحابة) ، وأخوه مجد الدين أبو السعادات صاحب (جامع الأصول) ، ووالده من كبار موظفي الدولة الزنكية ، وهي دولة سنية ، وعاش في مدينة سنية وهي الموصل ، وقد تتبعت من كتب عنه أو تـرجـم له أو لمن أخذ عنهم من العلماء ؛ فلم أجد جواباً شافياً عن السؤال المتبادر : ما هو سـبــب هذا الاتجاه عند ابن الأثير؟؛ وقد انتقدوه لتحامله أحياناً على صــلاح الـديـن الأيـوبـي ، وعللوا ذلك بتعصبه للأسرة الزنكية والأخلاق ، ولكن لم يشيروا إلى مدحه لملوك الدولة العـبـيـديــة وغيرهم مما سنوضحه في هذا المقال ، ولعل الله ييسر لنا الاطلاع على مصادر أخرى، لنحاول كشف أسباب هذا الميل عند مؤرخنا الكبير.

الدولة العبيدية :

نـشـأت هــذه الـدولـة في المغرب بين قبائل تجهل الإسلام؛ فانخدعوا بدعوة أبي عبد الله الــشــيـعـــي، وناصروه حتى استقر له الأمر، واطمئن فكتب إلى رئيسه الباطني في مدينة (ســلـمـية) في بلاد الشام أن يقدم إليه ، فلما دخل المغرب تسمَّى بعبيد الله ، ولقَّب نفسه بالمهدي ، والعلماء يقولون:إن اسمه سعيد ، وهو من ولد ميمون القداح الملحد المجوسي. وعندما تمكن عبيد الله بطش بأقرب الناس إليه والذي أسس له الملك ، داعيته أبي عبد الله الشيعي ، وبطش بالمخالفين من قبيلة (كتامة) ، ولم يعلق ابن الأثير على ظلمه هذا ، بينما نجده ينتقد ما فعله عبد الملك بن مروان بعمرو بن سعيد الأشدق حين غدر به وقتله، فقال: »وكان عبد الملك أول من غدر في الإسلام« (1) ، وعندما ذكر كلام عبد الملك في مرضه الأخير وهو يذم الدنيا ويحذر من الآخرة قال : »ويحق لعبد الملك أن يحذر هذا ويخاف ، فإن من يكون الحجاج بعض سيئاته، علم أيَّ شيء يقدم عليه« (2) ، أما ما فعله عبيد الله بالعلماء العاملين الذين كرهوا دولته وعقيدته الفاسدة كالإمام أبى جعفر محمد بن خيرون المعافري، حين قتل تحت أرجل زبانية عبيد الله (3)، فهذا لا يذكره ابن الأثير، وجرائم عبيد الله وذريته بعلماء أهل السنة كثيرة كابن البردون الإمام

الشهيد ، الذي قتله داعية عبيد الله صلباً (4)، والإمـــام الـشـهـيـد قـاضـي مدينة برقة محمد بن الحبلي الذي قتله إسماعيل الملقب بالمنصور، وهو حفيد عبيدالله. يقول الذهبي: علق في الشمس إلى أن مات، وكان يستغيث من العطش فلم يسق ، ثم صلبوه ، فلعنة الله على الظالمين (5).

يــقــول الـمـؤرخ عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي الملقب بأبي شامة عن عبيد الله: »وكان زنديقاً خبيثاً عدواً للإسلام، متظاهراً بالتشيع، قتل من الفقهاء والمحدثين جماعة كثيرة، ونشأت ذريته على ذلك ، وكان يرسل إلى الفقهاء والعلماء فيذبحون في فرشهم ، وأرسل إلى الروم وسلطهم على المسلمين« (6).

ويـقــول عـن أولاده: »ولـمـا هلك قام ابنه المسمى بالقائم، وزاد شره على شر أبيه أضعافاً، وجاهر بشتم الأنبياء« (7).

هــذا رأي كـثـيـر مــن عــلـمـاء المسلمين والمؤرخين في ذرية عبيد الله، ولكن ابن الأثير في ترجمته لملوك هذه الدولة لا يكتفي بالسكوت عن مـســاوئـهـم، بــل يـمـدحهم ويطريهم، ويحاول التهوين من شأن عقائدهم المخالفة لعقائد أهل السنة. قال في ترجمة مــعــد بـــن إسـمـاعيل الملقب بالمعز ، وهو رابع ملوكهم: »وكان فاضلاً جواداً ، شجاعاً ، جارياً على منهاج أبيه من حسن السيرة وإنصاف الرعية ، وستر ما يدعون إليه إلا عن الخاصة ، ثم أظهر ، وأمر الدعاة بإظهاره ، إلا أنه لم يخرج فيه إلى حد يذم به«(8).

وإذا كان سـب الـصـحـابــة وإكراه الناس على عقائدهم الفاسدة شيء لا يذم ، فمتى إذن يذمون؟!.

وحاول مرة أخرى الاعتذار عن شاعر (المعز) محمد بن هانئ الذي قتل في برقة وهو مرافق لسيده في انتقاله إلى مصر ، قال : »وكان من الشعراء المجيدين إلا أنه غالى في مدح المعز ، حتى كفَّره العلماء لقوله :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

وبعد أن سرد له أشعاراً أخرى توجب الكفر قال : »وبالجملة فقد جاوز حد المديح« ، هكذا مجاوزة فقط ، وليس كفراً صريحاً.

وبعد أن استقر المقام للمعز في مصر أرسل أحد قواده لأخذ بلاد الشام ، واستطاع هذا القائد احـــتــلال دمــشــق، إلا أن الشريف أبا القاسم الهاشمي جمع الناس للمقاومة، فقال ابن الأثير: »فجمع أحداثها، ومن يريد الفـتـنة، فثار بهم في الجمعة الثانية، وأبـطـل الخطبة للمعز« (9).

والمعز هذا الذي يقول عنه ابن الأثير: »وكان فـاضــلاً« كـان مـغــرمـَّاً بالنجوم ويعمل بأقوال المنجمين ، وقد أشـــار علـيه أحدهم أن يختفي سنة كذا لأنها شؤم عليه ، فعمل سرداباً واختفى فيه، فـكـان أحـد جـنـوده إذا رأى سـحـاباً سلم عليه ظناً منه أن المعز فيه (10)، وهذا يدل على تشجيعه للغلو فيه.

وجـــاء بـعـد المعز ابنه نزار الملقب بـ (العزيز) الذي استوزر يعقوب بن يوسف ابن كلس ، وهـو يهودي الأصل ، ثم عيسى بن نسطورس النصراني

الذي استتاب على الشام يهودياً يعرف بـ (منشا)، فارتفعت كلمة النصارى واليهود في عهد هذا الوزير، وكان وزير المنصور الملقب بـ: (الحاكم) وزيراً نصرانياً اسمه فهد بن إبراهيم. كما أن وزير الحافظ كان بهرام الأرمني الذي استقطب حوله أبناء جنسه وأساء السيرة ، حتى اضــطــر للهرب إلى بلاد الشام (11).
وأما أفعال (الحاكم) القبيحة ، ومحاولة ادعائه الربوبية ، وتصرفاته الغريبة المتناقضة فهي مشهورة معلومة ، وفي أواخر عهد العبيديين :استعانوا بالروم خوفاً من توسع دولة نور الدين زنكي ، مما اضطره لإرسال صلاح الدين الأيوبي لإنقاذ مصر من الخطر المحدق بها.
والخلاصة أنها دولة باطنية إسماعيلية ابتلي بها المسلمون أكثر من قرنين.

مع البويهيين :

لـيـس مـن الـعـســير لمن يقرأ ما كتبه ابن الأثير في (الكامل) أن يحس بتعاطفه مع الدولة البويهية ، فهو لا يـذكـرهـــم إلا مادحاً معظماً الأوائل منهم ، بل يغالي في المديح أحياناً عندما يعتبر وفاة ركن الدولة الحسن بن بويه مصيبة للدين والدنيا معاً ، ثم يقول في نهاية ترجمته : (رضي الله عنه وأرضاه).
وفي ترجمته لمعز الدولة البويهي -وهو ثـالـث الإخوة الذين حكموا العراق وبلاد فارس-، يـقـول ابن الأثير : »وكان حليماً كريماً عاقلاً«. أما ابن كثير فيقول عنه : »بنى داراً ببغداد، فـخـرب معالم بغداد بسببها ، وكان رافضياً خبيثاً ، وفي عهده كتبت العامة من الروافض على أبواب المساجد بلعن كبار الصحابة من الخلفاء الراشدين ولم ينكر عليهم معز الدولة، ولم يغيِّره ، قبَّحه الله وقبح شيعته من الروافض« (12).
ويــقـــول ابن الأثير عن عضد الدولة بن ركن الدولة الحسن بن بويه: »وكان عاقلاً فاضلاً، حسن السياسة ، كثير الإصابة ، محباً للفضائل وأهلها« (13).
والحقيقة :أن عضد الدولة لا يختلف كثيراً عن (معز الدولة) ، وكان وزيره نصر بن هارون نصرانياً ، وهو الذي أنفق سنة كاملة لعمارة المشهد العلوي (14).
والدولة البويهية كانت من الأسباب القوية لإضعاف الخلافة العباسية ، بل فكَّر ملوكها بإزالة الخلافة عن بني العباس ونقلها إلى الطالبيين ، لولا النصيحة التي جاءت بأن وجود خليفة عباسي ضعيف خير من وجود خليفة طالبي تزول بوجوده شرعية البويهيين أمام أتباعهم الشيعة ، ومع ذلك فقد كانوا مستهترين بالخلافة ، فقد نهب بهاء الدولة قصر الخليفة الطائع وقبض عليه وخلعه من الخلافة ، وكانت للدولة البويهية صلات جيدة مع القرامطة الباطنيين (15).
ولم يقدموا أي مساعدة للمسلمين الذين قدموا بغداد سنة 361 هـ مستغيثين من الروم ، وكان السلطان البويهي في رحلة صيد في الكوفة فخرج أهل بغداد منكرين عليه ذلك ، فوعدهم بالمساعدة ، ثم إن "بختيار" طلب من

الخليفة مالاً لتجهيز الناس ، وأجبره على دفع المال ، ثم صرفه في مصالحه الخاصة وبطل حديث الغزاة (16).

الإمارة الأسدية :

عندما ضعفت الخلافة العباسية طمع كل صاحب قوة في اقتسامها ، وأخذ جزءاً منها ليعلن فيه مملكته ولو كانت هذه المملكة مدينة صغيرة ، وفي هذا الجو من التمزق والأنانية وجدت الإمارة الأسدية، نسبة إلى بني أسد بن خزيمة ، وأول أمرائهم المشهورين :علي بن مزيد ، ثم ابنه المنصور ، وبرزت في عهد صدقة بن منصور الذي أنشأ مدينة الحلة (17) واتخذها عاصمة قبيلته وإمارته ، كما اتخذوا التشيع عقيدة لهم.

هذه الإمارة مثل بقية الدول الصغيرة التي عاشت في هذا العصر ، تعيش على التناقضات والتحالفات مع السلاطين الأقوياء ولا تهتم بمصلحة عامة ، فهي لا تقيم ديناً ولا دنيا ، وإن كان أمراؤها الأوائل من أصحاب الشجاعة والكرم.

وابن الأثير يمدح هؤلاء الأمراء ولا يذكر مساوئهم ، وأهمها :الخروج على الخليفة وعلى السلطان السلجوقي ، وإفناء الناس بحروب تخدم مصلحتهم ، فقد قتل صدقة بن دبيس في قتاله مع السلطان محمد بن ملكشاه وهو عند مؤرخنا (من محاسن الدنيا). أما ابنه دبيس بن صدقة فقد عاث في الأرض فساداً ، فاضطر الخليفة لقتاله ، ودارت الدائرة على دبيس فانهزم وفر إلى شمالي الجزيرة ، والتحق بالفرنج وحضر معهم حصار حلب وحسن لهم أخذها ، ثم فارقهم والتحق بالملوك السلاجقة ، ثم قتله السلطان مسعود بن محمد ، يقول الذهبي : »وأراح الله الأمة منه ، فقد نهب وأرجف وفعل العظائم« (18).

استمرت هذه الإمارة بعد دبيس ضعيفة ممزقة قائمة على النهب والسلب والإفساد ، مما اضطر الخليفة أن يأمر بإجلاء بني أسد عن الحلة ، وذلك عام 558 هـ.

الصليحيون :

كما يمدح ابن الأثير علي بن محمد الصليحي الذي ملك اليمن كلها عام 455 هـ ، وكان داعية للدولة العبيدية في مصر ، فيقول عنه : »ودخل مكة مالكاً لها ، وظهرت منه أفعال جميلة«(19) ، ولا يذكر أنه على مذهب العبيديين.

وقد يقال : إن ابن الأثير مؤرخ حيادي ، يذكر ما سمعه ، وما نقله ، ولا يتدخل في النصوص، وإنما يعرضها كما وجدها ، ويترك مهمة البحث والنقد لغيره.

ولكننا نراه في مواضع أخرى ينتقد أو لا يذكر محاسن بعض الملوك ، ويمدح في حين يمدح غيرهم كما مدح ملوك البويهيين والعبيديين.

فعندما ترجم للخليفة عبد الرحمن الناصر الأموي صاحب الأندلس لم يزد على أن ذكر أوصافه الجسمية ، وكم بقى في الحكم ، ولم يذكر شيئاً من حسناته

وفتوحاته وجهاده مع الفرنجة ، واكتفى بالقول في نهاية الترجمة : »وكان ناسكاً« (20).
هذه أمثلة من مزالق خفية، أردت التنبيه عليها، والقصد هو تنقيح تاريخنا وتصـحـيـحه، ولم أرد من ورائها تنقص ابن الأثير، ولا التهوين والإقلال من قيمة كتابه (الكامل) ، فهو مجهود عظيم يستحق التقدير.

الهوامش :

1- الكامل 4 / 522.
2- المصدر السابق 4/521.
3- سير أعلام النبلاء 14 /217.
4- المصدر السابق 14 /216.
5- المصدر السابق 15 / 374.
6- الروضتين في أخبار الدولتين 1 /201.
7- المصدر السابق 1 / 202.
8- الكامل 8 / 665.
9- المصدر السابق 8 / 591.
10- المصدر السابق 8 / 664.
11- د. محمد ماهر حمادة : الوثائق السياسية 4 / 44.
12- البداية والنهاية 11 / 256.
13- الكامل 9 ، / 19.
14- المظفري : تاريخ الشيعة /212.
15- الكامل 8/615.
16- المصدر السابق 8/618.
17- قال في الروض المعطار في خبر الأقطار : »وهي مدينة كبيرة منفية على شط الفرات بناها سيف الدولة زعيم بني مزيد حوالي 495 هـ. انظر الروض / 197 بتحقيق إحسان عباس.
18- سير أعلام 19 / 613.
19- الكامل 10 / 30.
20- الكامل 8 / 535.

التوحيد مفتاح دعوة الرسل

بقلم : عثمان جمعة ضميرية

لقد أكرم الله تعالى هذا الإنـسـان ، وأعـظــم عليه المنَّة ، عندما بعث إليه الرسل ، وأنزل معهم الكتب والشرائع ، التي تتفق مع فـطــرة هذا الإنسان ،

التي فطره الله تعالى عليها؛ من الإيمان بالله سبحانه وتعالى ، الخالق المعبود ، الذي لا يستحق العبادة أحد سواه.
ثم أكرم الله تعالى هذا الإنسان مرة أخرى ، عندما ختم الرسالات السماوية برسالة مـحـمد -صلى الله عليه وسلم- ، وتكفّل بحفظها وحفظ كتابها ، حيث قال سبحانه وتعالى : ((إنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)) [الحجر:9].
وبذلك كانت رسالة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- هي الرسالة الوحيدة التي بقـيـت عـلـى أصـولـهـا الـمنزلة، محفوظة -بحفظ الله تعالى- من أي تغيير أو تحريف أو تبديل، وبذلك تم الحفاظ على دعوة التوحيد ، نقية صافية ، كما جاء بها جميع الرسل ، عليهم الصلاة والسلام ، إلى أن ختموا بمحمد -صلى الله عليه وسلم- ، وقد جاؤوا جميعهم بدعوة الإسلام وكلمة التوحيد.
والتوحيد : هو قاعدة كل ديانة جاء بها من عند الله تعالى رسولٌ. ويقرر الله سبحانه وتعالى هذه الحقيقة ويؤكدها ، ويكررها في قصة كل رسول على حدة ، كما يقررها في دعوة كل الرسل إجمالاً ، على وجه القطع واليقين :
((ولَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إلَهٍ غَيْرُهُ)) [المؤمنون:23].
((وإلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إلَهٍ غَيْرُهُ)) [الأعراف:65].
((وإلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إلَهٍ غَيْرُهُ)) [الأعراف:73].
وهي الكلمة نفسها التي تكررت على لسان شعيب وموسى وعيسى -عليهم الصلاة والسلام- ، حتى أصبحت قاعدة عامة ، قررها الله سبحانه وتعالى فقال : ((ومَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إلاَّ نُوحِي إلَيْهِ أَنَّهُ لا إلَهَ إلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ)) [الأنبياء:25].
((ولَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ واجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)) [النحل:36].
فالتوحيد مفتاح دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وهو أول ما يدخل به المرء في الإسلام ، وآخر ما يخرج به من الدنيا ، فهو أول واجب وآخر واجب.
ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لمعاذ بن جبل-رضي الله عنه-عندما بعثه إلى اليمن : »إنك تأتى قوماً أهل كتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه : عبادة الله وحده ، وفي رواية : فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله ، عز وجل ، افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله تعالى ، افترض عليهم صدقة في أموالهم ، تؤخذ من أغنيائهم وتُردُّ إلى فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لذلك فإيّاك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب« [اخرجه الشيخان] . وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : »أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن

محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله عز وجل« [رواه الشيخان].
وفي هذا الحديث الشريف تفسير لقول الله تعالى : ((فَإن تَابُوا وأَقَامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ)) [التوبة:5].
والتخلية في هذه الآية الكريمة ، والعصمة في الحديث الشريف ، الذي جاء قبلها ، كلاهما بمعنى واحد.
فكل الرسل ، عليهم الصلاة والسلام ، قد أدركوا حقيقة "التوحيد" وكلهم بعثوا بها ،وكلّهم دعا إلى عبادة الله الواحد ، دعا إلى الحقيقة التي تلقاها وأُمر بها كما أُمر أن يبلغها ، وقد نهضوا جميعا -عليهم الصلاة والسلام- بذلك ؛ لإيمانهم المطلق بكونها الحقيقة الصادرة إليهم من الله تعالى وحده ، ومن ثم كان هناك مصدر واحد لا يتعدد ، يتلقى منه البشر التصور الصادق ، الكامل الشامل لحقيقة الوجود كله ، هذا المصدر هو الذي أنزل على خاتم رسل الله تعالى محمد-صلى الله عليه وسلم- ، هذا الكتاب ، القرآن الكريم ، أنزله بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه. وهو كتاب واحد في حقيقته ، وهو تصور واحد في قاعدته : رب واحد ، وإله واحد ، ومعبود واحد ، مشرع واحد لبني الإنسان ، فالله تعالى هو الذي خلق ، فهو الذي يشرع ويأمر وينهى ، ومنه نستمد جميع الأحكام من حلال وحرام : ((أَلا لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ)) [الأعراف: 54]. ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ)) [البقرة:21-22].
وإن التوحيد المطلق لله سبحانه وتعالى ، يقتضي توحيد دينه الذي أرسل به الرسل ، عليهم الصلاة والسلام ، للبشر جميعاً ، وتوحيد رسله الذين حملوا هذه الأمانة ، والرسالة للناس ، ولذلك عبر الله تعالى عمن يريدون التفرقة بين الله ورسله ، وعمن يريدون التفرقة بين الرسل -بأن يؤمنوا ببعض ويكفروا ببعض- عبَّر عن هؤلاء وعن هؤلاء أيضاً بأنهم ((هُمُ الكَافِرُونَ حَقاً)) ، فقال الله ، سبحانه وتعالى : ((إنَّ الَذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ورُسُلِهِ ويُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ ورُسُلِهِ ويَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ ونَكْفُرُ بِبَعْضٍ ويُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُوْلَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ حَقاً وأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً)) [النساء:150-151].
وما ذلك إلا لأن التوحيد هو الأساس اللائق بتصور المؤمن لله سبحانه وتعالى ، كما أنه هو الأساس اللائق بوجود منظّم غير متروك للتعدد والتصادم ، والفوضى والعبث ، ولأنه هو العقيدة اللائقة بإنسان يرى وحدة الناموس والسنن ، في هذا الوجود أينما امتد بصره ، وهو أيضاً التصور الكفيل بضم جميع المؤمنين في موكب واحد يقف أمام صفوف الكفر ، وفي حزب واحد يقـف أمام حزب الشيطان..

ولكن هذا الصف الواحد ، هو صف المؤمنين حقاً بالله سبحانه وتعالى ، وصف أصحاب العقيدة الصحيحة ، التي لم يدخلها تحريف ولا انحراف ، عقيدة التوحيد التي جاء بها محمد - صلى الله عليه وسلم - وتكفل الله تعالى بحفظها ، ومن ثم كان الإسلام هو دين التوحيد ، الذي لا يقبل الله تعالى من البشر ديناً غيره ، لأنه هو الدين الحق :
((إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإسْلامُ)) [آل عمران:19] ((ومَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ)) [آل عمران:85].

شؤون العالم الإسلامي ومشكلاته

المجاعة في الصومال

"إن قومي يقاسون المرض والجوع.. إننا نفنى فناءً بطيئاً !!.. وخلال وقت قصير سوف لن يبقى منّا أحد!.. بإمكانك رؤية هذه المأساة البشرية ، مقابر أهلينا وهياكل ماشيتنا باتت في كل مكان«".
بهذه الكلمات الحزينة والـنـبـرات الـمـؤثـرة وصف شيخ قبيلة صومالي -لأحد الصحفيين الغربيين- الحالة المأساوية التي يعيشها إخـوانـه الـمـسـلـمـون فـي تلك البقعة من العالم الإسلامي.
فمنذ مطلع هذا العام والصومال -ذلك البلد الأفريقي المسلم- يئن تحـت وطـأة الـمـجاعات وحـالات الجـفـاف الـتي تتوالى منذ حين ، والتي أتت على كل شيء ، وخلفّت وراءهـا عشرات الألوف مـن الموتى ومئات الألوف من المرضى والهلكى ، أمّا الناجون فكثيرٌ منهم -إن لم نقل: جلّهم- قد باتوا في حالة صحية متردية من جراء سوء التغذية ، هذا وتعيش المناطق المنكوبة حالة شلل اقتصادي تام ، لاسيما بعد شروع الآلاف من أفراد القبائل -من الذين أنهكهم الجوع والظمأ- بهجرات جماعية ، تاركين وراءهم أمتعتهم وممتلكاتهم ، قاصدين أطراف المدن والقرى بحثاً عما قد يسدون به رمقهم ، وقد أقيمت للنازحين -الذين يربو عددهم على النصف مليون- مخيمات مؤقتة في العراء وتحت أشعة الشمس الحارقة ، ولا يجد النازحون ما يستظلون به سوى جلود ماشيتهم التي يتخذونها أسقفاً تقيهم لهيب أشعة الشمس ، وتسود المخيمات أجواء صحية سيئة للغاية ، حيث يعيش ساكنوها في ظروف وضيعة لا تليق ببني الإنسان ، فقد انقلبت هذه المخيمات إلى محل لرمي النفايات والفضلات ، ومكان لقضاء الحاجات.
وهكذا فقد بات انتشار الأمراض الفتاكة كالكوليرا والدوسنتاريا أمراً وشيك الوقوع ، مما ينذر بمزيد من الضحايا ، نظراً لضعف المناعة البدنية التي آلت إليها حالة الغالبية بسبب حدة سوء التغذية ، لاسيما بين الأطفال الذين تعرض كثير منهم إلى حالات فقدان الوزن بدرجة تنذر بالخطر -حسب تقرير إحدى

منظمات الإغاثة العالمية- ، وذلك بسبب النقص الشديد في المواد الغذائية وسوءها والذي من أحد مضاعفاته مرض ذات الرئة الذي أخذ هو الآخر يحصد المئات من الأطفال في غياب الأدوية والمضادات الحيوية ، التي كان من واجب منظمات الإغاثة العالمية توفيرها كأبسط احتياط أولي لمثل هذه الحالات المتكررة الحدوث في بلد فقير كالصومال.

قحط وجفاف متواصل :

وتأتي حالة الجفاف التي تجتاح الصومال اليوم امتداداً لما عاناه -ومازال يعانيه- على مدى الأعوام الثلاثة الماضية من انخفاض شديد في معدل سقوط الأمطار ، وجفاف كان سبباً في هلاك أعداد ضخمة من المواشي والجمال ، فقد تحدثت وكالات الإغاثة العالمية عن هلاك ما يربو على 78% من الأغنام والماعز ، و 66% من الدواجن ، و 53% من الجمال ، وإن هول الفاجعة ليعظم في عين القارىء إذا ما علم أن 70% من الصوماليين هم من البدو الرعاة الذين ليس لهم ما يعتمدون عليه في معيشتهم سوى هذه المواشي ، وما تنتجه لهم كمصدر وحيد لأسباب البقاء.

وهكذا فإن نمط العيش في هذا البلد هو من النوع الهش الشديد التأثر بتقلبات الطقس التي تأتي أول ما تأتي على الثروات الحيوانية التي هي للصوماليين كالأرض بالنسبة للمزارع ، فإذا ما سلب الأرض حرم من سبب العيش ، إلا أن يرحمه الله.

هذا بالإضافة إلى أن هذه الثروة الحيوانية الضخمة تشكل العمود الفقري للاقتصاد الوطني في الصومال ، كما أنها تمثل المورد الرئيسي للعملات الصعبة ، باستثناء المساعدات المالية التي يحصل عليها من قبل بعض الدول والهيئات والتي لا تخلو من شروط مسبقة ، ولا أَدَلَّ على حيوية الثروة الحيوانية وأهميتها كعنصر أساسي في اقتصاد هذا البلد مما نشر في البيانات الاقتصادية من أن صادرات هذه الثروة قد بلغت في عام 1986 : ما مقداره 135 مليون دولار ، ومع أنَّ هذا الرقم يشكل 80% من واردات العملة الصعبة. فإذا ما تذكرنا تلك الإحصائيات التي نشرتها المنظمات العالمية عن الخسائر التي حلت بالثروة الحيوانية تجسدت لنا المأساة التي حلت بذلك البلد المسلم.

الصومال تقرع أجراس الخطر :

في أواخر العام الماضي 1986 م بدأت وزارة الثروة الحيوانية الصومالية اتصالات أولية مع هيئة برنامج التنمية التابع للأمم المتحدة -ومهمته التنسيق مع باقي هيئات الإغاثة الدولية- ، تحذرها من مغبة تحوُّل حالة الجفاف التي تجتاح البلاد -والتي طال أمدها- إلى مجاعة واسعة وخيمة العواقب قد تودي بحياة العشرات من الألوف من السكان.

وفي مطلع هذا العام ومع بداية شهر شباط عاودت الجهات الحكومية اتصالاتها وإنذاراتها لجمع من منظمات وهيئات الغوث الدولية وبشكل رسمي - خطِّي هذه المرة- ، مشعرة إياها بوشوك وقوع كارثة في المناطق المتضررة من جراء طول موسم الجفاف ، كما وزعت الحكومة مذكرات مفصلة وضحت فيها حجم المساعدات الضرورية المطلوبة من مأكل ومأوى ، والتي كان من الواجب توفيرها قبل حلول شهر آذار من هذا العام ، في الوقت الذي لم يكن قد سجلت فيه بعد أية حالة وفاة بين السكان.

ومما يجدر ذكره :أن الإحصائيات الحكومية هذه جاءت مطابقة فيما بعد لما نشرته اثنتان من كبريات وكالات الإغاثة الدولية - وهما "أوكسفام"(1) و "اليونيسيف" من بيانات تشير إلى مدى تدهور الوضع الصحي لدى السكان ، هذا بالإضافة إلى قيامها بلفت أنظار أكبر عدد ممكن من هيئات الإغاثة الدولية -ممن يعنيهم الأمر- إلى حقيقة ما يجري هناك.

لقد قرعت الصومال أجراس الخطر ، وجاءت نداءاتها واستغاثاتها مبكرة وفاسحة المجال أمام كل من تحدثه نفسه القيام بأي عمل غوثي.. لقد حدث كل ذلك.. إلا أن صدى قرع أجراس الخطر تلك لم يكن سوى التفرج والصمت التامَّين؟!

صيحة في واد...!

لقد جاءت نداءات واستغاثات الصومال صيحة في واد...! لقد أدارت الوكالات والهيئات الدولية آذاناً صماء لتلك النداءات على كثرتها وحدّة نبراتها ، والتي جسدت بؤس ومأساة أولئك العزل من الناس ، الذين لم يعد لهم حول ولا قوة سوى استقبال الكارثة التي باتت في انتظارهم.

ومما زاد من تفاقم تلك المأساة وحدتها :تلك الخلافات التي نشبت بين هيئات ومنظمات الغوث ، والتي كان مبعثها -حسبما ذُكر في تقارير المتتبعين لتطورات الوضع هناك- "التنافس"...!

ولا ندري ما طبيعة ذلك "التنافس"؟وعلى أي شيء كان يدور؟ أَعَلَى الزج بأكبر عدد ممكن من تلك الهياكل البشرية المتحركة في ميادين الصراع مع الجوع والظمأ؟ أم على التلذذ بمنظرها وهي تتساقط في ساحات الفناء الواحدة تلو الأخرى؟!!

وكنتيجة طبيعية لهذا "التنافس" فقد انعدمت بين هذه الهيئات "المتنافسة" أدنى مستويات التنسيق والتعاون ، فعلى سبيل المثال لا الحصر ترفض: إحداهنّ (منظمة الصحة العالمية) -في مطلع شهر نيسان من هذا العام- طلباً للأخرى (منظمة اليونيسيف) مقدماً من الجهات المحلية للبحث في قضية وفاة (**26**) شخصاً بعد إصابتهم بمرض الإسهال ، بحجة عدم قيام تلك الجهات بإبلاغها مباشرة!!

وأخشى ما نخشاه أن يكون غياب التنسيق هذا والذي مبعثه التنافس هو في حقيقة أمره ثمرة لتنسيق وتخطيط خبيثين تحوكه أيادي القائمين على إدارة دفة هذه الهيئات من اليهود والصليبيين -كما سيتبين بعد قليل- ، الذين لا يرقبون في مسلم إلا ولا ذمة ، ولا يدعون فرصة إلا واستغلوها أبشع استغلال للوصول إلى مآربهم في النيل من أبناء المسلمين ، حتى ولو كان باسم إغاثتهم.
ومن نفس المنطلق هذا ترفض منظمة الصحة العالمية القيام بمسؤولياتها على ضوء النتائج التي خرجت بها منظمة اليونيسيف في أعقاب عملية المسح التي أجرتها ، بحجة أن هذه النتائج كانت على جانب شديد من المبالغة والتهويل!!
ومن الملفت للنظر حقاً ، أن رفض منظمة الصحة العالمية لنتائج هذه المسوحات المقدمة إليها لم يقتصر على المنظمات والهيئات التي تخوض حالة تنافس معها فحسب ، بل إنه تجاوز إلى أكثر من ذلك ليشمل منظمات أخرى كمنظمة "أوكسفام" التي انتقد تقريرها انتقاداً لاذعاً ، على الرغم من شمولية بياناته ودقتها ، والتي جاءت محذرة من تفشي حالات سوء التغذية التي ظهرت في بعض الأقاليم.

الدور الأميركي :

وعلى الرغم من كل ما قامت به منظمة الصحة العالمية من ممارسات خبيثة في حق مسلمي الصومال ، إلا أن ذلك لم يؤهلها للوصول إلى دور الصدارة في "مسرحية الإغاثة" هذه ، بل لقد أسند هذا الدور إلى الولايات المتحدة الأمريكية ومنظماتها "الإنسانية" ، ولا غرابة في ذلك البتة ؛ فهي التي عودتنا أن يكون لها النصيب الأكبر في هذا الطراز من الجرائم التي ترتكب في حق الشعوب المغلوبة ، كيف لا واليهود لهم أكبر نصيب من إدارة دفة الأمور فيها؟!
ويأتي دور أمريكا هذا عبر منظمتها المسماة الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية ، وهي تعتبر أكبر مصدرٍ للإعانات الغذائية في العالم ، كما أنها تأتي في طليعة هيئات الإغاثة الدولية -بالنسبة للصومال- من حيث النفوذ الذي تتمتع به وحجم المساعدات المفترض تقديمها له. ولعل دور هذه الوكالة التآمري في مسرحية الإغاثة هذه يرتسم في مخيلة القارىء إذا ما علم أن ممثل دولة الصومال لديها هو يهودي اسمه ليو كوهين (lew cohen)!! والممارسات المشبوهة لهذه الوكالة كثيرة قد لا يتسع المقام لذكرها ، لذا فإننا سنكتفي فيما يلي بذكر شواهد مُنتقاة من تلك الممارسات بالقدر الذي يفي بالغرض ، ولكي تتضح الصورة:
فلقد كانت المرة الأولى التي فاتحت فيها الحكومة الصومالية هذه الوكالة في 7 / 2 /1987م ، وفي حينها طلبت مساعدات ملحة على شكل مواد غذائية

وعقاقير طبية. إلا أن رد هذه الوكالة "الإنسانية" لم يأت إلا بعد عشرة أيام وبالتحديد في 17 / 2 /1987 م ، وعبر الكليمات المعدودة التي احتواها الرد قال كوهين : إنه حسب توقعاته ، فإن ما لدى الحكومة من احتياطات غذائية يكفي لتغطية هذه الطلبات. أما بالنسبة لما تتطلبه عملية توزيع هذه المواد من نفقات ؛ فيقول كوهين: إن الوكالة ربما تقوم بمساعدة مالية لتغطية هذه النفقات ، على أن هذه المساعدة لن تتخذ شكل إعانات مالية جديدة ، بل إنها تأتي من أرصدة ما يسمى بـ (pL 480) ، وهذه عبارة عن عوائد مالية كانت الحكومة قد حصلت عليها من مبيعات مواد غذائية -في السوق المحلية- جاءتها عن طريق هذه الوكالة.

ومما يجدر ذكره :أن الأرصدة الآنفة الذكر تقع بصورة مباشرة تحت هيمنة الوكالة الأمريكية ، ولا يسمح للحكومة بمسها أو التصرف بها البتة ، إلا بعد الحصول على موافقة الوكالة أولاً!!

هذا ولم تكن الحكومة في رسالتها الثانية أوفر حظاً منها في المرة الأولى ، على الرغم مما تضمنته من تأكيدات من أن وزارتها المالية قد باتت في حالة عجز تام ، ومن أنها لم تعد قادرة على القيام بمسؤولياتها.

وحينما يأتي دور تحديد حجم الضحايا فللوكالة موقف آخر أقرب للطرفة منه للواقع ، ولا غرابة في ذلك ، لقد قدرت الحكومة عدد المتضررين -من الذين باتت حالتهم الصحية في أمس الحاجة إلى عون طبي- بـ (880) ألفاً ، أما الوكالة الأمريكية فإنها -وبطبيعة الحال- لا ترى ذلك ، بل إنها شددت على أن عددهم -أي: المتضررين- لا يجاوز بحال العشرين أو ربما الثلاثين ألفاً!!

وأغرب من ذلك: رفضها لطلب الحكومة بتوفير ما مقداره (13500) طن من الحبوب لإغاثة أسوأ الأقاليم تضرراً الأمر الذي يتطلب توفير مبلغ (550) ألف جنيه استرليني للقيام بهذه العملية ، علماً بأن المبلغ المذكور يكفي -زيادة على ثمن ونقل وتوزيع الحبوب- لتوفير كميات أخرى من الحليب المجفف وزيوت الطهي ، إلا أن رد الوكالة كان منطلقاً من "قناعتها" من أنه من غير المعقول أن تتجاوز تلك الاحتياجات الغذائية حدّ الـ (450) طن!! وهذا يعني: حصر النفقات الكلية بما لا يزيد على (70) ألف جنيه استرلينى!!

وعلى الرغم من تزايد حالات الوفيات المبلغ عنها مع حلول منتصف شهر نيسان من هذا العام-حيث سُجلت مئات من حالات الوفاة بين الأطفال بسبب سوء التغذية المشار إليها آنفاً- ، فإن رسائل الوكالة الصادرة في تلك الفترة كانت ما تزال تصف الحالة بأنها ليست حرجة ، إلا أنها تسترعي الاهتمام!!

وفي الفترة ذاتها وبالتحديد في 13/4/1987م ، كتبت وزارة الداخلية الصومالية إلى الوكالة الأمريكية معبرة عن صدمتها لطبيعة الردود الاستخفافية التي تلقتها رداً على رسائل الاستغاثة التي بعثت بها ، ومطالبة إياها باتخاذ مواقف أكثر جدية تجاه تطورات الأحداث. إلا أن المراسلات التي توالت بين الطرفين فيما بعد لم تسجل أي تراجع ملحوظ في ردود الوكالة

عن نمطها الاستهتاري المعهود ، وهكذا فقد بقيت أقاليم وسط الصومال بدون أي إعانات غذائية ، باستثناء كميات متواضعة جداً -وصلت من دول مجاورة- لا تتناسب وحجم الكارثة ، وبقي الحال على ما هو عليه ، حتى إذا ما حل شهر حزيران من العام نفسه غطت موجات المجاعة المكتسحة تلك الأقاليم (فدج ، هيران ، جل جدود) ، وخلّفت وراءها الخراب والدمار وأعداداً مخيفة من الموتى بشكل لم يشهده تاريخ المنطقة قط ، وبذلك تحققت أحلام كوهين وأقرانه..

وهذا الذي ذكرناه ليس إلا غيضاً من فيض ، وما هو إلا جزء يسير مما استطاعت أقلام وعدسات الصحفيين الوصول إليه وتغطيته ، ولا شك أن ما خفي أعظم وأهول.

وبعد....

ونحن -في هذا المقام- إذ نلفت الأنظار إلى أحابيل هذه المنظمات المشبوهة ومؤامراتها الإجرامية على الصومال -وأمثاله من الدول المغلوبة- ، لابد من كلمة أخيرة حول الدول التي تعاني من المشاكل الاقتصادية الخانقة ، حيث إن الظروف الطبيعية والحوائج المعيشية مثل القحط والجفاف ليست هي المسؤول الأول عن حالة البؤس والمصائب التي حلت بشعوب هذه الدول ، وإنما سلوك الذين يقبضون على زمام الأمور هناك من أكبر العوامل التي ساعدت على إفقار هذه الشعوب وتجريدها من كل شيء، لا من الأشياء التي تشكل قوام حياتها المادية فحسب. وإن التخبط ، وقصر النظر ، وسوء التخطيط ، وخراب الذمم ، وإنفاق مال الأمم على ما لا يجدي... كل ذلك ينبغي أن لا يستبعد من الحسبان عند تحليل تلك الأوضاع.

1- أوكسفام : مؤسسة تبشيرية مشهورة مقرها "أكسفورد" في بريطانيا ، وتساهم في أعمال الإغاثة في أفريقيا وغيرها.

خواطر في الدعوة

المسلم وأغلال البيئة

محمد العبدة

إن مما تـتطـلع إلـيـه هـمـة المسلم ويـراه من أوجب الواجبات العودة بالناس إلى هذا الدين الـذيـن ارتـضـاه الله ، وتطبيقه في حياتهم تطبيقاً عملياً ، والمسلم عندما يريد ذلك لابد أن يرتفع بالناس إلى مستوى الإسلام ، ولابد لمن يقوم بمثل هذه المهمة العظيمة أن ينتزع نفسه من الآثـار السلبية للبيئة المحيطة به حتى يستطيع انتشال الناس مما هم عليه من الهوى واتباع العادات والمألوف ، وحب الدنيا والانغماس فيها.

ولكن كيف يقوم بهذه المهمة إذا كان مكبلاً بالواقع غارقاً فيه؟

إننا - في الحقيقة - نحمل في عقـلياتنا وتصرفاتنا آثار البيئة التي عشنا فيها ، بسلبياتها وإيجابياتها ، بيئة المنزل والمدرسة ، بيئة الشارع والمجتمع ، بل وبيئة النظم السياسية والاقتصادية التي حولنا ، وهذا من الأمراض الخـفـية الـتي لا ينتبه لها ، لأننا لم نتعود النظر إلى مشكلاتنا بـعـمـق وتبصر ، للابـتـعاد عن مواطن الضعف والخلل ، أو على الأقل النظر بين كل مرحلة وأخرى لمعرفة السلبيات التي تعوقنا.
قد يكون المجتمع الذي يعيش فيه المسلم مجتمعاً تعود على الإسراف في إنفاق المال ، دون حـساب أو تخـطـيـط أو تدبير ولا يسـتـفاد من هذا المال بتوظيفه في طرق الخير التي تنفع الفرد والجماعة ، يتأثر المسلم بهذه البيئة فينفق أحياناً على الكماليات أو المأكل والملبس والمسكن مالا يليق بالمسلم الداعية في مثل هذه الظروف الصعبة ، ولهذا فهو لا يوفر جزءاً من دخله ليستثمره في وجوه الخـير ، ومع ذلك فـهـو يـظـن أنه لم يقدم على خطأ لأنه لا يـعـرف قـيـمـة المـال وأهـمـيته في حياة الأمم وتقدمها ، بل ربما ظن أن الكلام في التدبير والاقتصاد هو من قبيل الكلام في (الماديات) التي يترفع عنها ، ولا يجب الخوض فيها ، لأنه مشغول بأمور أهم من المال ، ولقد نزل القرآن الكريم والعرب يتفاخرون بالكرم حتى وصلوا به إلى حد الإسراف فأرجعهم الله سبحانه وتعالى إلى حد الاعتدال ، فقال : ((ولا تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً)) والحقيقة أنه رباهم تربية حضارية ، وعلمهم أن المال هو من بعض مقومات الدول والحضارات ، وإلا فهو التفاخر الفردي ، وإن كان في الأصل هو خلق كريم.
وقد يعيش المسلم في بيئة اجتماعية معينة ، بيئة الريف والمدن أو البدو والحضر ، أو بيئة الفقر والـغـنى، فماذا نجد؟ .. نجد أن المسلم يتصرف أحياناً بسذاجة وسطحية في تقويمه للناس، أو يتصرف بخديعة ومكر، وهو يظن أن هذا من الذكاء و(الشطارة) وينسى قول عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: (لـسـت بالخـب لكن الخـب لا يخـدعني) وكان الأولى أن يوجه مكره إلى أعداء الإسلام.
وقد يعيش المسلم في بيئة الإقليميات الضيقة التي ابتليت بها مجتمعاتنا في العصر الحديث هـذه الإقليـمـيـات النـتـنة التي لا تكتفي بأن يتعصب ويفخر أهل إقليم على إقليم آخر بل تصل إلى تعصب كل مدينة على أختها ، وقد يقع المسلم في حبائل هذه الإقليمية دون أن يدري، فينظر للمسلمين الآخرين نظرة أهل بلده، وكلٌ يظن أن الآخرين لا يفهمون الإسلام مـثـل فـهـمـه، وأنهم مقصرون وهو الحقيق بأن يعيد مجد الإسلام ، وقد يأتي بهذه النظرة على شـكـل المزاح والطوائـف، ولكنك تشعر أنه في داخله يحمل هذا المرض. والعجيب أن هذا المسلم يدعو إلى العالمية ، وهو يعتقد فعلاً أن دعوته عالمية وأن الإسلام لا يقبل هذا المنطلق الإقليمي -هذا مع أن الله قد بين أنه خلق الناس شعوباً وقبائل من أجل التعارف، لا من أجل التناكر

والتناحر- وأن الإسلام جاء ليهدم هذه العصبية، وقد يقع المسلم في نوع من الجاهلية ولكنه إذا ذُكّر تذكر وآب إلى الحق ، أو هكذا يجب أن يكون.

سؤال وفتوى

الشيخ. محمد صالح العثيمين

نص الفتوى :

»زعـم أحـد الـوعـاظ في مسـجد من مساجد أوربا في درس من دروسه :أنه لا يجوز تكفير اليهود والنصارى ، وتعلمون -حفظكم الله- أن بضاعة معظم الذين يترددون على المساجد في أوربا من العلم قليلة ، ونخش أن ينتشر مثل هذا القول ، ونرجو منكم بياناً شافياً في هذه المسألة«.

الجواب :

أقول : إن هذا القول الصادر عن هذا الرجل ضلال ، وقد يكون كفراً ، وذلك لأن اليهود والنصارى كفرهم الله -عز وجل- في كتابه ، قال الله تعالى :
((وقَالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وقَالَتِ النَّصَارَى المَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ))
((اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ ورُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ والْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ومَا أُمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدُوا إلَهاً واحِداً لاَّ إلَهَ إلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)) ، فدل ذلك على أنهم مشركون ، وبين الله تعالى في آيات أخرى ما هو صريح بكفرهم :
- ((لَقَدْ كَفَرَ الَذِينَ قَالُوا إنَّ اللَّهَ هُوَ المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ))
- ((لَقَدْ كَفَرَ الَذِينَ قَالُوا إنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ))
- ((لُعِنَ الَذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ))
- ((إنَّ الَذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ والْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ))
والآيات في هذا كثيرة ، والأحاديث ، فمن أنكر كفر اليهود والنصارى الذين لم يؤمنوا بمحمد -صلى الله عليه وسلم- وكذبوه، فقد كذب الله - عز وجل -، وتكذيب الله كفر، ومن شك في كفرهم فلا شك في كفره هو.
ويا سبحان الله؛ كيف يرضى هذا الرجل أن يقول: إنه لا يجوز إطلاق الكفر على هؤلاء، وهم يقولون :إن الله ثالث ثلاثة ، وقد كفرهم خالقهم -عز وجل-؟ ، وكيف لا يرضى أن يكفر هؤلاء وهم يقولون : إن المسيح ابن الله ، ويقولون : يد الله مغلولة ، ويقولون :إن الله فقير ونحن أغنياء؟.
كـيـف لا يـرضـى أن يـكـفـر هـؤلاء وأن يطـلـق كلمة الكفر عليهم، وهم يصفون ربهم بهذه الأوصاف السيئة التي كلها عيب وشتم وسب.
وإني أدعو هذا الرجل، أدعوه أن يتوب إلى الله -عز وجل-، وأن يقرأ قول الله تعالى: ((ودُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)) ، وألاَّ يداهن هؤلاء في كفرهم ، وأن يبين

لكل أحد أن هؤلاء كفار، وأنهم من أصحاب النار، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: »والذي نفسي بيده، لا يسمع بي يهودي ولا نصراني من هذه الأمة -أي :أمة الدعوة- ثم لا يتبع ما جئت به، أو قال :لا يؤمن بما جئت به ، إلا كان من أصحاب النار«.
فعلى هذا القائل أن يتوب إلى ربه من هذا القول العظيم الفرية ، وأن يعلن إعلاناً صريحاً بأن هؤلاء كفرة ، وأنهم من أصحاب النار ، وأن الواجب عليهم أن يتبعوا النبي الأمي محمد -صلى الله عليه وسلم- ، فإنه بشارة عيسى -عليه الصلاة والسلام- ، مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل: يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه وأولئك هم المفلحون.
وقال عيسى ابن مريم ما حكاه ربه عنه : ((يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ومُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ)).
لما جاءهم مَنْ..؟ من الذي جاءهم..؟ المبشَّر به أحمد ، لما جاءهم بالبينات قالوا :هذا سحر مبين، وبهذا نرد دعوى أولئك النصارى الذين قالوا: إن الذي بشر به عيسى هو "أحمد" لا "محمد" ، فنقول إن الله قال : ((فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ)) ولم يأتكم بعد عيسى إلا محمد -صلى الله عليه وسلم-، ومحمد هو أحمد، لكن الله أَلْهَمَ عيسى أن يسمي محمداً بأحمد، لأن أحمد اسم تفضيل من الحمد ، فهو أحمد الناس لله ، وهو أحمد الخلق في الأوصاف كاملة ، فهو عليه الصلاة والسلام أحمد الناس لله ، جعلاً لصيغة التفضيل من باب اسم الفاعل ، وهو أحمد الناس بمعنى أحق الناس أن يحمد ، جعلاً لصيغة التفضيل من باب اسم المفعول ، فهو حامد ومحمود على أكمل صيغة الحمد الدال عليها أحمد.
وإني أقول : إن كل من زعم أن في الأرض ديناً يقبله الله سوى دين الإسلام ، فإنه كافر لا شك في كفره ، لأن الله -عز وجل- يقول في كتابه :((ومَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ)) ، ويقول -عز وجل- : ((اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ورَضِيتُ لَكُمُ الإسْلامَ دِيناً)).
وعلى هذا -وأكررها مرة ثالثة- على هذا القائل أن يتوب إلى الله -عز وجل- ، وأن يبين للناس جميعاً أن هؤلاء اليهود والنصارى كفار ، لأن الحجة قد قامت عليهم وبلغتهم الرسالة ، ولكنهم كفروا عناداً.
ولقد كان اليهود يوصفون بأنهم مغضوب عليهم ؛ لأنهم علموا الحق وخالفوه ، وكان النصارى يوصفون بأنهم ضالون لأنهم أرادوا الحق فضلوا عنه ، أما الآن فقد علم الجميع الحق وعرفوه ، ولكنهم خالفوه ، وبذلك استحقوا جميعاً أن يكونوا مغضوباً عليهم ، وإني أدعو هؤلاء اليهود والنصارى إلى أن يؤمنوا بالله

ورسله جميعاً ، وأن يتبعوا محمدا -صلى الله عليه وسلم- ، لأن هذا هو الذي أمروا به في كتبهم ، كما قال الله تعالى :
((ورَحْمَتِي وسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ويُؤْتُونَ الزَّكَاةَ والَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ* الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ والإنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ ويَنْهَاهُمْ عَنِ المُنكَرِ ويُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ ويُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ ويَضَعُ عَنْهُمْ إصْرَهُمْ والأَغْلالَ الَتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وعَزَّرُوهُ ونَصَرُوهُ واتَّبَعُوا النُّورَ الَذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ)).
((قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنِّي رَسُولُ اللَّهِ إلَيْكُمْ جَمِيعاً الَذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ لا إلَهَ إلاَّ هُو يُحْيِي ويُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ ورَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وكَلِمَاتِهِ واتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)).
وليأخذوا من الأجر بنصيبين ، كما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- :
»ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد -صلى الله عليه وسلم-... الحديث«.
ثم إني اطلعتُ بعد هذا على كلام لصاحب "الإقناع" في باب :حكم المرتد ، قال فيه بعد كلام سبق :
».. أو لم يكفر من دان بغير الإسلام كالنصارى ، أو شك في كفرهم ، أو صحح مذهبهم ؛ فهو كافر«.
ونقل عن شيخ الإسلام قوله :
»من اعتقد أن الكنائس بيوت الله ، وأن الله يعبد فيها ، وأن ما يفعله اليهود والنصارى عبادة لله وطاعة له ولرسوله ، أو أنه يحب ذلك أو يرضاه ، أو أعانهم على فتحها وإقامة دينهم ، وأن ذلك قربة أو طاعة ؛ فهو كافر«.
وقال أيضاً في موضع آخر :
»من اعتقد أن زيارة أهل الذمة في كنائسهم قربة إلى الله ؛ فهو مرتد«.
وهذا يؤيد ما ذكرناه في صدر الجواب ، وهذا أمر لا إشكال فيه. والله المستعان.

****

قال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- :

اقرأوا القرآن تعرفوا به ،
واعملوا به تكونوا من أهله ،
ولن يبلغ حقُّ ذي حق أن يطاع في معصية الله ،
ولن يُقرِّب من أجلٍ ؛ ولن يباعد من رزق ؛ أن يقوم رجلٌ بحق ، أو يذكر بعظيم.

---

(1)
حاجة الدعاة المسلمين إلى المراجعة

الدكتور : محمد رشاد خليل

لا تشتد حاجة الدعاة المسلمين اليوم إلى شيء كما تـشـتـد حاجتـهـم إلـى المـراجعة البناءة لحصاد جهودهم في مجال الدعوة الإسلامية. ذلك أن هذه المراجعة ضرورية اليوم لتصحيح أخطاء التجربة ، ولتلافي أوجه القصور في العمل ، وتلافي أسباب ما حدث عند البعض من فشل ، والعمل على توحيد الصفوف على خطة عمل تأخذ في حسابها كافة العوامل المؤثرة عـلــى سير الدعوة سلباً وإيجاباً ، وتفرق بين الممكن والواجب ، وتنسق بين الإمـكـانــات والأهداف ، وتعمل على رفع أسباب الاختلاف والفرقة التي يكون سببها : نقص العلم ، وقلة الخبرة ، وسوء التقدير ، وسوء الفهم ، وسوء الظن ، وفرط الثقة ، وعدم التخطيط ، أو سوء التخطيط ، وسوء التنفيذ.

المخاطر التي تهدد الصحوة الإسلامية :

وإنه مما يضاعف هذه الحاجة أن ما ذكرته أصبح يمثل تهديداً جدياً للصحوة الإسلامية المستهدفة أصلاً من أعداء أقوياء في الداخل والخارج قد أجمعوا أمرهم على إجهاضها وتصفيتها وضربها بكل الوسائل ، ولقد نبهت منذ سنوات في مقالات عدة إلى هذا الخطر ، وحذرت من مغبة تجاهله ، وحذرت من أن أجهزة الرصد والمراقبة في الشرق والغرب وتوابعها في العالم الإسلامي تعكف على دراسة المد الإسلامي ، وأن هناك سيلاً من الدراسات والتحليلات التي تتناول ظاهرة البعث الإسلامي تتدفق من مختلف الاتجاهات ، وأن هذه الدراسات والتحليلات تتسم بالإثارة والتحريض والتخويف والتشويه ، وأن مسئولين على أعلى مستوى في الإدارة الأمريكية لا يكُفّون عن التحذير من هذا المد حيناً ، وتوعده حيناً ، والدعوة إلى احتوائه حيناً. وفي مقابلة أجرتها مجلة (يو. إس. نيوز) مع مستشار الأمن الأمريكي وقتها (ربنجيوا بريزنسكي) قال (بريزنسكى) كلاماً خطيراً جداً هذا نص ترجمته.

"»أولاً ينبغي أن نعلم أن العالم الإسلامي بعد مئات من السنين التي قضاها في التبعية الأجنبية المباشرة بدأ يدخل في طور اليقظة الدينية والسياسية ، وهذه اليقظة والانتفاضة يمكن أن تتخذ مظاهر إيجابية أو سلبية ، ومن الواضح أن المصلحة الأمريكية تقضي أن تكون هذه المظاهر إيجابية«.

والذي يقصده (بريزنسكي) من الإيجابية هو احتواء هذه اليقظة ، وتوجيهها لخدمة المصالح الأمريكية ، أما كيف يمكن احتواء هذه اليقظة وتوجيهها لخدمة المصالح الأمريكية فذلك أسلوب غربي درجت عليه الدوائر الاستعمارية ، وبرعت فيه ، ولا يجب التقليل من قيمة هذا التوجيه ، أو الاستخفاف بمراميه

لأن الدوائر الاستعمارية تملك من إمكانات التوجيه والتحكم الشيء الكثير ؛ فقد يكون من أساليب ذلك التوجيه دفع الحركة الإسلامية -دون وعي منها- إلى اتجاهات تشتت جهدها، وتستفرغ طاقتها ، وقد يكون منها شغلها بمعارك جانبية ، أو أهداف وهمية.

ولقد رأينا كيف تحول العداء الموجه إلى السياسة الأمريكية وعملائها -بعد غزو روسيا لأفغانستان- إلى روسيا ، مما دفع بعض المحللين إلى القول بأن الغزو الروسي لأفغانستان تم بتنسيق مقبوض الثمن بين أمريكا والروس.. ونحن لا نريد أن نتوه في متاهة التحليلات التي كثيراً ما تكون هي نفسها موجهة ، ولكن الذي نريد أن ننبه إليه هو أن جعبة الاستعمار تحوي الكثير من المفاجآت والأساليب والخطط.

وسواء كان غزو أفغانستان بتنسيق مشترك بين الأمريكان والروس أو لم يكن فمن المهم أن نعرف أن التخطيط لا يمكن مواجهته بالارتجال والاستنتاجات العفوية ، وإنما يواجه بتخطيط علمي منظم يدرس كافة الاحتمالات ، ويستوعب الصورة من جوانبها المختلفة ، ويقدر لكل حالة ما يلائمها. ونحن لا نشك لحظة في المصلحة المشتركة بين الشرق والغرب في ضرب الصحوة الإسلامية ، وانهما معاً ومن خلفهما الدول الدائرة في فلكهما -سواء تم تنسيق أم لم يتم- يستخدمون كل ما يملكون لمنع قيام قوة إسلامية لها وجود عالمي مؤثر في توازن القوى الاستعمارية بأي حال من الأحوال ، ولا يجب أن يغيب عن وعينا لحظة واحدة أن هذه القوى تملك من وسائل التوجيه والتأثير في العالم الإسلامي الشيء الكثير ، وإنها عند الضرورة لن تتورع عن التدخل السافر المكشوف ، ومن هنا يتحتم على الحركة الإسلامية أن يكون لها عقلها الواعي المدبر ، القادر على التخطيط الواعي المنظم.

إن فرصتنا باتساع مدى الصحوة الإسلامية ، والعجز الظاهر حالياً عن احتوائها وتدجينها لا يجوز أن يشغلنا لحظة واحدة عن الخطر ومداه وإمكاناته ، كما لا يجب أن نغفل لحظة واحدة عن أن الصحوة الإسلامية تواجه أعداء أقوياء مدربين على العمل المخطط والمنظم ، ولهم يد طويلة في كل ركن من أركان العالم الإسلامي ، ولهم وسائل تأثير وعمل نشطة وقوية وراءها رصيد هائل من الخبرة والتجربة.

إجهاض الصحوة الإسلامية أخطر من نكبة الأندلس :

إن إجهاض الصحوة لو حدث فسوف يكون كارثة أشد هولاً بما لا يقاس من نكبة الأندلس ، لأن نكبة الأندلس وإن تمثلت في عملية استئصال بشعة ، إلا أنها كانت محصورة في طرف ، ولم تشمل الأمة كلها ، أما خطر إجهاض الصحوة فإنه يهدد مستقبل الأمة الإسلامية كلها بل يهدد وجودها كله ، ذلك لأنه سيجعل الطريق خالياً تماماً من أي عوائق لتكمل العلمانية مهمتها التي تمارسها بجد ونشاط منذ أكثر من قرن من الزمان ، هذه المهمة التي تتمثل

في إنهاء الوجود الإسلامي تماماً وتبديل الإسلام وليس مجرد تحريفه ديناً آخر يكون مطية للعلمانية وأداة من أدواتها ، وجزءاً من الشكل العام الذي صاغت فيه نفسها ، هذا إذا كتبت الغلبة للعلمانية الغربية التي حافظت على الدين بمفهومها الخاص كجزء من الشكل (الديكور) الخاص بها لأنها تزعم أنها تؤمن بحرية العقيدة -بمفهومها الخاص طبعاً للعقيدة- ضمن منظومتها الخاصة بها في الحرية والتي تحرص على أن تكون سمتها التي تميزها عن العلمانية الشرقية أي الشيوعية. أما إذا كتبت -ونعوذ بالله من كلا الحالتين- الغلبة للعلمانية الشرقية أي الشيوعية ، فإنها سوف تتعامل مع الإسلام كبقايا متخلفة من عصور تجاوزها التطور (ديالكتيك الطبيعة) كما يقولون. وهؤلاء لا يريدون الدين كشكل (ديكور) لأن نظامهم يقوم على الإلحاد كعقيدة ولا يؤمنون بالمفهوم الغربي للحرية ، ويرون الدين مظهراً من مظاهر التخلف التي يجب التخلص منها نهائياً..
إنني لا أتكلم هنا عن تصور مستقبلي لشكل الكارثة ، وإنما أتكلم عن بوادر لها واقع حقيقي في العالم الإسلامي سواء فيما يتعلق بالعلمانية الغربية أو العلمانية الشرقية.

العلمانية هي الخطر الحقيقي الذي يهدد الوجود الإسلامي :

إن الحقيقة التي يجب أن نستوعبها استيعاباً عميقاً يحرك في أعماقنا إحساساً متكافئاً بالخطر، هي أن العلمانية بشقيها أو بشطريها هي الخطر الحقيقي الذي يهدد الوجود الإسلامي تهديداً مباشراً، ذلك لأن العلمانيين يعلمون أكثر مما نعلم نحن -مع شديد الأسف- أن التهديد الحقيقي للعلمانية لا يتمثل في شيء على المدى الطويل كما يتمثل في الإسلام ، لأن الإسلام وحده هو الذي يملك إمكانات حقيقية (علمية وعملية وتنظيمية) لمواجهة العلمانية والتصدي لها ، إن قوة الإسلام تتمثل -كما يعرف هؤلاء بأكثر مما نعرف نحن (مع شديد الأسف)- في أساسه العلمي الراسخ الذي لا توجد فيه أي ثغرة من ثغرات الضعف الذي يتمثل في جزء خرافي أو أسطوري أو تلفيقي كما هو شأن الأديان الأخرى ، وهي الثغرات التي أمكن للعلمانية أن تستغلها عند الأديان الأخرى لتضربها في مـقــتـل ...
إنهم يعلمون أكثر مما نعلم نحن -وياللحسرة- أن الإسلام لم يعتمد قط على أي عنصر خرافي أو أسطوري للترويج لنفسه. وأن قوته الهائلة إنما استمدها من الطرح العلمي الخالص الذي استقطب عقول العقلاء ، الذين دانوا له بالطاعة ، والذين كان ليقينهم العلمي الراسخ بأن الإسلام حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، هذه القوة الدافقة الهائلة التي لا يعرف التاريخ لها نظيراً ، وأنهم إذا كانوا قد حاربوا الدين في الغرب أو الشرق باسم العلم فإن هذا الدين لو نجحت الصحوة الإسلامية في إعادة عرضه بدءاً مما ألحقه به

الجهلاء بل والأعداء المخربون من خرافات وأساطير ، فإنه سوف يستعيد سلطانه الساحق على العقول التي تؤمن بالعلم ، وهو السلطان الذي دانت له ومن أجله العقول في الماضي ، ودانت لهم الدنيا من بعد بفضل تمسكهم به ؛.. ويومها لن تستطيع قوة في الأرض أن تقف في وجهه لا باسم العلم ، ولا باسم العقل ولا باسم أي شيء آخر.

مسئولية الدعاة عن توجيه الصحوة :

لذا فإن الدعاة مسئولون أمام الله تعالى مسئولية كبرى عن توجيه الصحوة وحمايتها ، إن هذه الصحوة في أشد الحاجة إلى القيادة المؤمنة الواعية التي تستطيع توجيهها إلى العمل الصائب الذي يُجَنِّبْهَا المخاطر ، ويجعلها على وعي بالفخاخ المنصوبة على كل خطوة في الطريق.. إن أكثر ما يملأ النفس حسرة وأسى هو رؤيتها للنيران التي توقد للشباب المسلم في كل مكان ، لقد حدثنا القرآن الكريم عن أخدود واحد من الأخاديد التي حفرها الطغاة ليحرق فيها المؤمنون ، ودعانا إلى أن نلعن هؤلاء الطغاة ، بل علمنا كيف نلعنهم فقال تعالى : ((قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * ومَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ العَزِيزِ الحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ واللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)) [البروج:4-9].

إن القرآن الكريم لا يعرض علينا صورة من الماضي نتسلى بها ، ولا يعرضها على المؤمنين ليتعزوا بها فقط إذا ابتلوا ، وإنما يعرضها علينا ليكشف لنا عن النهج الطاغوتي في مواجهة المؤمنين ، وليبين لنا أن الطواغيت لا تتردد مطلقاً في أن تعمد إلى أبشع الوسائل لسحق الإيمان إذا شعرت أنه يعرض طاغوتيتها للخطر ، وهو يكشف لنا في نفس الوقت عن حجم الإيمان المطلوب ليكافئ هذا الخطر الطاغوتي ويواجهه.. وهذا الإيمان المطلوب ليس هتافاً تشق به الحناجر عنان السماء ، ولا هو كلمات لاهبة تصب لعناتها على الطغاة ، إنه ثمرة جهد صبور معين واعٍ في التعليم والإعداد والتربية ، والذين عاينوا وجربوا وواجهوا يعلمون علم اليقين أي نوع من الإيمان ، وأي قدر من الإيمان هو المطلوب لمواجهة المحارق التي يَستنزل هَوْلها الحليم من علياء حلمه ، ويستخرج الجلد الصبور من جلده وصبره.

خطر استهلاك الشباب :

وإنها لجريمة لا تَعْدلها جريمة أن يعبث عابث باسم الإسلام بشحن الشباب الغض الذي لم يستوِ على سوقه ، ولم يستحصد عوده ، ولم تكتمل أهبته ، ثم يدفعه بجهل وغرور وحمق إلى المحارق التي قد تفتن هذا الشباب عن دينه ، وما أكثر ما فتنت.. ثم ما أشد ظلم هؤلاء إذا ألقوا من بعد المسئولية على الشباب إذا فتنوا ، وتاهوا ، وضاعوا ، بل وانقلبوا أحياناً حرباً على الإسلام ، وأدوات في أيدي أعدائهم.

ثم إنها لجريمة أخرى أن يحجم الدعاة عن توجيه هذا الشباب مكتفين باتهامهم بالتطرف أو الغلو أو الجهل ، مع أن غيرهم أولى بأن يتهم بالتقصير في البلاغ والبيان والنصح ، لا أعني به هذا البلاغ الذي يتمثل في كلمة تلقى إلى الشباب من مذياع أو تلفاز أو صحيفة كثيراً ما يكون أصحابها قد تقاضوا عليها أجراً يصبحون بعد ذلك راضين عن أنفسهم متصورين أنهم أدوا الأمانة ، ونصحوا للأمة، فإذا لم يستجب الشباب لنصحهم فاللوم يقع على عاتق الشباب لا عليهم.
إن العمل المطلوب هو بذل أقصى الجهد من أجل تبصير الشباب بحقائق الواقع ، وتسليحهم بفهم سليم للإسلام ، وإنه لمما يحز في النفس أن يترك الشباب هكذا ، دون خبرة كافية بأساليب العمل ، ودون فقه كافٍ بالإسلام ، ودون عالم كاف بحقائق الحياة ، ودون معرفة صحيحة بالتاريخ، ودون وعى كاف بأحوال العصر وظروفه وقواه ومتغيراته.. يترك هكذا في مواجهة آلات جهنمية تستغل فيه حماسته لدينه ، مستدرجة إياه هنا وهناك إلى معارك تفتعلها لصرف الأنظار عن فشل ، أو عن تورط.. إن مسئوليتنا أمام ربنا تحتم علينا أن نحول بكل ما نملك من خبرة وعلم وجهد دون استهلاك هذا الشباب في مواجهات غير متكافئة لم يعدوا لها ، ولم يختاروا زمانها.. كما أنها تحتم الحيلولة دون استهلاك هذا الشباب نفسه في صراعات داخلية في نطاق الحركة نفسها سببها الأساسي قلة العلم، وقلة الفقه ، وقلة الخبرة.

الاختلاف والفرقة أشدا خطراً :

ومع التحذير الذي قدمناه من المخاطر الخارجية ، نحذر كذلك من مخاطر داخلية داخل الصحوة نفسها هو خطر الاختلاف والفرقة ، بل إن هذا الخطر أشد تدميراً من خطر الإجهاض الخارجي ، ذلك أن الخطر الخارجي إنما يمارس دوره من خلال منافذ وثغرات في البناء ، وأخطر هذه الثغرات والمنافذ هي الاختلاف والفرقة ، وبقدر ما ندعو إلى الحذر من الخطر الخارجي ندعو كذلك إلى ألا نجعل من هذا الخطر "شماعة" نعلق عليها عجزنا ونبرر بها فشلنا ، بل إنا لا يجب أن نلوم القوى الخارجية ، أو نتوقع منها شيئاً آخر غير ما تفعله بنا ، وإنما يجب أن نلوم أنفسنا. لقد قامت هذه القوى أساساً على استغلال الغير ، ولذا فلا توجد حدود أو اعتبارات تردعها عن هذا الاستغلال ، وهذه القوى لا تعرف إلا شيئاً واحداً اسمه (المصالح) ، وهي من أجل ضمان هذه المصالح لا تتورع عن ارتكاب أشنع الجرائم التي تؤثمها أية معايير أخلاقية ، ذلك أن السياسة الغربية فصلت منذ قرون فصلاً تاماً وكاملاً ونهائياً بين الأخلاق من أي نوع وبين المصلحة سواء كانت مصلحة قومية أو فردية ، وذلك منذ أن دانت بدين المذهب الطبيعي الذي يقول : بالبقاء للأصلح الذي هو الأقوى ، وليس الأحسن خلقاً ، والذي يؤمن أصحابه إيماناً مطلقاً بحق القوي في استغلال الضعيف وتسخيره ، بل فرقوا بين نوعين من الأخلاق :

أخلاق القوة التي ترى الرحمة والشفقة والإحسان والتسامح عجزاً وضعفاً ؛ وأخلاق الضعف التي ترى الرحمة والشفقة والإحسان والتسامح ديناً وتقوى ؛ وهم يعدون الأولى هي الأخلاق التي تليق بالسادة المؤهلين تأهيلاً طبيعياً للسيادة والسيطرة ، ويعدون الثانية هي أخلاق العبيد المؤهلين أيضاً تأهيلاً طبيعياً للخضوع والذل والمسكنة ، وقد ساد هذا المذهب في الغرب والشرق ، فظهر في فرنسا في صورة الوضعية التي أسسها "أوجست كونت" وفي إنجلترا في صورة المذهب الحسي عند "بنتام" وفي صورة الفلسفة التطورية عند "دارون" و "هربرت سبنسرا" ، بل إن هربرت سبنسر صرح بأن من حق الشعوب القوية استعمار الشعوب الضعيفة ، وفي ألمانيا في فلسفة القوة عند نيتشه والذي مجد الشراسة والافتراس كخلق إنساني للأقوياء ، وأفرز النازية في ألمانيا والفاشية في إيطاليا ، وفي إيطاليا سبق (ميكافيللي) إلى تقرير المذهب الذي يعرف باسمه اليوم ويدين به الساسة في كل بلد ، والذي يقول بأنه لا أخلاق في السياسة ، وفي أمريكا ظهر في صورة المذهب النفعي (البراجماتى) الذي أسسه وليم جيمس ، وفي روسيا في صورة الشيوعية.. وعليه فيجب أن نتصرف على أساس أن سلوك الاستعماريين هو سلوك ثابت مؤسس على اعتقاد راسخ ، وليس مجرد نزوات طارئة أو وقتية..
ولاشك أن الذي مكن وما يزال يمكن للاستعماريين فينا هو عجزنا وضعفنا وهواننا وفرقتنا ، ولكن حين يكون التفرق والاختلاف في الصحوة التي تعقد عليها الآمال في خروج الأمة الإسلامية من بئر الهوان فإن الأمر لا يحتمل التلكؤ ، وإنه جد خطير..
ولنواجه الواقع الإسلامي دون لف أو دوران ، ودون مواربة لأن ذلك يعني ترك الخرق يتسع ، والشق يتحول إلى شقوق تؤدي في نهاية الأمر إلى انفجار الصحوة من داخلها ، وساعتها لا ينفع الندم، وساعتها لن يكون الحساب حساب الذين اختلفوا وحدهم ، وإنما سيكون أيضاً حساب الذين عرفوا وسكتوا ، والساكت عن الحق شيطان أخرس.

اختلاف الناس :

لا أقول إنه يمكن رفع الاختلاف كلية ، لأن الاختلاف في الناس سنة من سنن الله تعالى من أجلها خلقهم ، قال تعالى : ((ولَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً ولا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ولِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ)) [هود /118]. جاء في تفسير هذه الآية : »يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة من إيمان أو كفر كما قال تعالى : ((ولَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً)) ، وقوله : ((ولا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ)) أي ولا يزال الخلف بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم. قال عكرمة :

مختلفين في الهدى ، وقال الحسن البصري : مختلفين في الرزق يسخر بعضهم بعضاً ، والمشهور الصحيح الأول« [تفسير ابن كثر 1 /464-465].

الاختلاف في المسلمين أكثر منه في أهل الكتاب السابقين :

بل لقد حذر الرسول -صلى الله عليه وسلم- في حديث الفرق المشهور من أن الاختلاف في أمته سيكون أكثر من الاختلاف في اليهود والنصارى ، وقد روي هذا الحديث بطرق كثيرة منها ما رواه أبو داود في سننه من حديث معاوية بن أبى سفيان -رضي الله عنهما- ، أنه قام فقال : ألا إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قام فينا فقال : »إلا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين ، اثنتان وسبعون في النار ، وواحدة في الجنة وهي الجماعة ، وإنه سيخرج من أمتي أقوام تَجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه«.

لا عذر في الاختلاف الذي سببه الأهواء والشهوات :

لكن ذلك لا يعني أن أهل الخلاف معذورون في اختلافهم عند الله تعالى ، بل العكس هو الصحيح ، وهو أنهم محجوجون عنده ، لان الاختلاف وقع منهم بسبب أهوائهم وشهواتهم ، ولذلك تخلفت عنهم رحمة الله تعالى التي كتبها للذين يتبعون هداه ويخالفون أهواءهم وشهواتهم ، ولا يخالفون هدى الله ، ولذا قضى الله عليهم بالعذاب ما لم يتوبوا.

الاختلاف الذي يعذر فيه :

إنما يعذر في الاختلاف الذي يكون سببه الجهل وفساد التأويل فيما يعذر المخالف فيه بجهله أو بفساد تأويله مما لا يكون معلوماً من الدين بالضرورة ، أو مما يجب على كل مسلم أن يعرفه ، وهذا النوع من الاختلاف ، يجب فيه تعليم الجاهل ، وبيان فساد التأويل للمتأول ، مع التأكيد على المخالف بعد البيان إذا أصر على الخلاف بعد البيان يكون متبعاً لهواه مفارقاً للجماعة التي من شذ عنها شذ في النار.

خلاف يثاب عليه :

وفي داخل الجماعة التي كون من شذ عنها شذ في النار ، خلاف أعذر الله فيه المخالفين من المجتهدين في فقه الأحكام العملية فيما يجوز فيه الاجتهاد، ولأنهم استفرغوا الوسع، وبذلوا الجهد، ولم يتبعوا أهواءهم وعدهم الله بالأجر حتى مع الخطأ.

من أجل ذلك كله دعوت وأدعو إلى المراجعة البناءة للعمل الإسلامي لتوجيه الصحوة الإسلامية، وحمايتها من المخاطر التي تتهددها ، ويجب أن تكون المراجعة على منهج هدفه أن يحصر الخلاف ، ويتعلم الجاهل ، ويتنبه المتأول ويلزم الناس الجماعة التي بدونها تصبح الصحوة فقاعة في الهواء ؛ ولن يتحقق ذلك إلا على أساس من فقه صحيح للإسلام.

سيطرة العادة وتحكيم الهوى
من مقومات الجاهلية

محمد الناصر

كان أهل الجاهلية يعظمون الآباء والأجداد ، ويتغنون بمفـاخـر القـبيلة ، فهم أكثر الناس عدداً ، وأقواهم شكيمة ، وأعلاهم نسباً ، فالكبر ديـدنـهـم ، وعظمة الدنيا تملأ قلوبهم ، من كثرة الأموال والبنين إلى الخيل المسومة.. وقطعان الإبل والمواشي.

ومع الزمن كانت هذه التـقـالـيـد قـد أصـبـحـت ديناً ، فلا يجوز المساس بها ، ولا يصح الخروج عما تعارف عليه أبناء القبيلة الواحدة.

كاد الفرد أن يلغي عقله أمام مطالب العادات الموروثة ، وعندما أطـلـت تـبـاشـيـر الـدين الجـديـد اصـطـدم الدين الحنيف بهذه التقاليد ، ولذلك حذر الإسلام من التعلق بالعادات الضالة وندد بفعل أصحابها ، وحذر من الوقوع في متاهاتها بعد نعمة الإسلام.. ونستعرض بعض هذه العادات المذمومة كنماذج فقط.

الفخر بالأحساب :

قال -عليه الصلاة والسلام -:

»أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر في الأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والناحبة -أو قال: النائحة- إذا لم تتب قبل موتها«(1).

دل الحديث على بطلان ما كان عليه أهل الجاهلية من الخصال الرديئة ، وورثتهم اليوم طائفة من هذه الأمة تـجـاوزوا فـيـهـا أسلافهم ، فتراهم يفتخرون بمزايا آبائهم وهم عنهم بمراحل ، فهذا يقول: كان جدي الـشـيـخ الفلاني ، وهذا يقول : جدي العالم الرباني.. إلى غير ذلك(2).

ويذكر ابن تيمية -رحمه الله-: أن تـعـلـيـق الـشـرف في الدين بمجرد النسب هو حكم من أحكام الجاهلية الذين اتبعتهم عليه الرافضة وأشـبـاهـهـم من أهل الجهل.. ولهذا ليس في كتاب الله آية واحدة يمدح فيها أحداً بنسبه ولا يذم أحــداً بنسبه ، وإنما يمدح بالإيمان والتقوى ، ويذم بالكفر والفسوق والعصيان ، ثم استشهد بالحديث الشريف :»أربع من أمر الجاهلية« ، وقد سبق ذكره ، فجعل الفخر بالأحساب من أمور الجاهلية (3).

لقد غلا القوم في تعظيم الأسلاف والأكابر حتى حجبهم هذا التعظيم عن قبول دين الحق ، فحال هذا التقليد دون إسلام أبى طالب ، رغم اعتقاده بـصـدق ابن أخيه -صلى الله عليه وسلم- وما كان عليه من هدى.

وفي "الصحيح" عن ابن المسيب عن أبيه قال : »لما حضرت أبا طالب الوفاة ، جاء رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعنده عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل، فقال: ياعم ؛ قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله. فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟، فأعاد عليه النبي صلى الله عليه وسلم-، فأعادا ، فكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول : لا إله إلا الله«(4).

والعصبية والتمسك بتراث الأسرة والعشيرة هو الذي جعل أبا جهل يقول : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك مثل هذا؟ ، والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه (5).

لقد رفض الإقرار بالحق ، وبالقرآن الذي استمع إليه خلسة مع نفر من أصحابه من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في جوار الكعبة، وتأثروا بما سمعوا.. لكنها التقاليد والعادات والحفاظ على موروثاتها.

كان المشركون يستكبرون على المرسلين، ((إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ)) (6)، فالتكبر والإعراض والجمود على العادات السقيمة كانت من أمراض الجاهلية وما تزال.

والثأر : عادة متأصلة ، تسببت في حروب لا تنطفىء ، وكان الثأر من أرسخ عادات الجاهلية وأقواها أثراً.. وكثير من أيام العرب كان السبب الأول فيها الثأر ، كحرب البسوس ، وأيام الأوس والخزرج وغيرها.

وقبيل فتح مكة المكرمة اعتدى بنو بكر على خزاعة في وقعة الوتير، ثم ألجأوهم إلى الحرم قالت عندها بنو بكر لقائدهم نوفل بن معاوية الديلي: يا نوفل، إنا دخلنا الحرم، إلهك إلهك، فقال كلمة عظيمة: لا إله اليوم، يا بني بكر: أصيبوا ثأركم، فلعمري إنكم لتسرقون في الحرم ، أفلا تصيبون ثأركم فيه؟ (7).

لقد نسي نوفل هذا قدسية الحرم (عندهم)، وتجاهل حتى التأدب في ألفاظه في سبيل إصابة الثأر.

وكان من هذا القبيل أن صحابياً فاضلاً (وهو : عبد الله بن عبد الله بن أبي سلول) يعرض على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يقتل أباه رأس النفاق ، لما بلغه قوله: ((لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ)) ، لأنه يخشى إن قتله مسلم ألا تطاوعه نفسه فيثأر فيقتل مسلماً بمنافق : »وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله ، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس فاقتله ، فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار (8).

عادات وأعراف ليس من السهل التخلص منها بسرعة... العادات متأصلة قضى الإسلام على السيء منها ، وأحل محلها تشريعات عادلة.. حرم إراقة دم

المسلم ، ((ومَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ ولَعَنَهُ وأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً)) (9).
وجعل إقامة الحد للحاكم المسلم ، فنظم الحقوق ، وشفى النفوس ، ((ولا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلاَّ بِالْحَقِّ ومَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلا يُسْرِف فِّي القَتْلِ إنَّهُ كَانَ مَنصُوراً)) (10).
إن الإسلام قضى على عادة الثأر بتشريع القصاص : ((ولَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)) (11).
وفي أيامنا هذه يقتل البريء -فى كثير من الحالات- ويترك الجاني ، لأن أهل القتيل لم يستطيعوا التوصل إليه ، وتناسى الناس مدى حرمة دم المسلم ، وانتكسوا في الجاهلية من جديد.

التقليد الأعمى :

أهل الجاهلية كان دينهم مبنياً على أصول ، أعظمها التقليد ، فهو القاعدة الكبرى لجميع الكفار من الأولين والآخرين كما قال تعالى : ((وكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إنَّا وجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وإنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ)) (12).
((وإذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً ولا يَهْتَدُونَ)) (13).. إلى غير ذلك مما يدل على أن أهل الجاهلية كانوا في ربقة التقليد لايحكمون لهم رأياً ولايشغلون فكراً ، ولذلك تاهوا في أودية الجهالة ، وعلى طريقتهم كل من سلك مسلكهم في أي عصر كان.
فأهل الجاهلية جعلوا مدار احتجاجهم على عدم قبول ما جاءت به الرسل ، أنه لم يكن عليه أسلافهم ولا عرفوه منهم ، فانظر إلى سوء مداركهم وجمود قرائحهم (14).
يقول تعالى : ((وانطَلَقَ المَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا واصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي المِلَّةِ الآخِرَةِ إنْ هَذَا إلاَّ اخْتِلاقٌ)) (15).
إن المتتبع لأحداث التاريخ وتراجم الماضين ليقف حائراً مدهوشاً لما يرى من وقائع مذهلة أقدمت عليها طوائف من الناس، فأسبغت قدسية وتعظيماً على الآباء والشيوخ والأجداد، وأطلقت عليهم من الصفات والنعوت ما يطلق عادة على الآلهة... ولتقاليد الأسلاف سلطان قوي يخلب ألباب البشر ، وسلطان الأجداد والشيوخ يجب أن يقف عند حد معين لا يتجاوزه ، وإلا كان وبالاً ومصيبة على البشرية ، لا يعرف مداها إلا الله (16).
إن اتباع العادات كان سبباً في مجانبة الحق ، لأن أصحابها يقدمونها على السنة. يقول الإمام الشاطبي :
»من أسباب الخلاف... التصميم على اتباع العوائد وإن فسدت أو كانت مخالفة للحق ، وهو اتباع ما كان عليه الآباء والأشياخ وأشباه ذلك ، وهو

التقليد المذموم ، فإن الله ذم ذلك في كتابه بقوله: ((إِنَّا وجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ)). وقوله: ((قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ))، فنبههم على وجه الدليل الواضح، فاستمسكوا بمجرد التقليد.. فقالوا : ((بَلْ وجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ)) (17).

وللاستفادة مما كان عليه الآباء ينبغي أن يخضع ذلك للكتاب والسنة ، للعلم والهدى ، لأنه:»إذا ثبت أن الحق هو المعتبر دون الرجال ، فالحق أيضاً لا يعرف دون وسائطهم ، بل بهم يتوصل إليه ، وهم الأدلاء على طريقه«(18).

إن الخطورة تكمن في تحكيم العادات في أمر الناس ولو خالفت الكتاب والسنة ، وما من عادة سيئة أو بدعة محدثة إلا وتُميت سُنة نيِّرة.. ولذلك حرر الإسلام العقول من الجمود على الماضي أو العادات الدارجة ذات الإلف إلى النفوس ، وسد كل الطرق المؤدية إلى تشويه صفاء التوحيد والعقيدة.. كتعظيم القبور والأضرحة ، وما شابهها.

قال -صلى الله عليه وسلم- : »لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله«أخرجه الشيخان.

وقال -صلى الله عليه وسلم- محذراً من الغلو :

»إياكم والغلو ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو« (19).

لقد أهلك الغلو أناساً كثيرين من طوائف هذه الأمة ، وسما الإسلام بعقلية المؤمنين ، واشترط أن يكون هوى المؤمن تبعاً لأحكام الشرع. وفي الحديث الشريف عن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال : »لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به«(20).

وهكذا حرم الإسلام الغلو في الرجال وفي المعتقد ، وحرم كذلك الأهواء وتحكيم العقول في معارضة الأدلة الشرعية الصحيحة ، ومنذ القديم ضلت المعتزلة بسبب تحكيم العقل في كتاب الله ، ولاتباع الهوى في التأويل ، وكثرة الجدل.. قال -عليه الصلاة والسلام -: »ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل« (21).

اتباع الهوى من رواسب الجاهلية :

كان أهل الجاهلية يتبعون أعراف الآباء وموروثات الأجداد ، فليس لديهم تشريع سماوي ، وكانوا يحكمون الشهوة والهوى ونزوة العقل كما يحلو لهم ، ذلك أنه لا معبود لهم إلا الهوى صراحة أو مواربة ، وعلى »حسب المعبود يكون منهج الحياة ، فحين يكون المعبود هو الله يكون منهج الحياة هو المنهج الرباني المبين فيه الحلال والحرام والحسن والقبيح والمباح وغير المباح ، وحين يكون المعبود شيئاً آخر يكون منهج الحياة هو الذي يمليه ذلك الشيء المعبود ، سواء كان هو الهوى صراحة دون مواربة ، أم كان هو الهوى من وراء أستار وشعارات وعناوين! ومن ثم تتعدد الصور في الجاهليات المختلفة ، وتلتقي في أنها كلها هوى.. إن يكن هوى فرد بعينه أو مجموعة أفراد أو هوى كل الناس مجتمعين.. فكلها في النهاية أهواء« (22).

إن الشريعة حدت من تحكيم الهوى ، وضبطت الأمور بالنصوص الثابتة ، فحرمت البدع في الدين لأنها تقّول على الله ورسوله ؛ »لأن الشريعة كانت إذا أخذت في الدروس بعث الله نبياً من أنبيائه يبين للناس ما خُلقوا لأجله ، وهو التعبد لله.. وأن الشريعة جاءت كاملة لا تحتمل الزيادة ولا النقصان ؛ لأن الله تعالى قال فيها: ((اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ))« (23).
وفي الحديث الشريف الذي رواه العرباض بن سارية -رضي الله عنه-: »فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، عضوا عليها بالنواجذ.. وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة« (24).
فاتباع الهوى في التشريع حقيقته افتراء على الله تعالى.. يقول تعالى : ((أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إلَهَهُ هَوَاهُ)) (25).
لذلك كانت البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ؛ لأن البدعة لا يتاب منها ، والمعصية يتاب منها (26).
إن اتباع الهوى والغلو في الرجال والعقائد ضلَّل كثيراً من الفرق ، كالخوارج والشيعة.
أما الخوارج :فقد غلوا في فهم آيات الوعيد ، وأعرضوا عن آيات الرجاء ، وأما الشيعة :فقد كان الغلو كذلك أحد أسباب ظهورهم ، وابن سبأ اليهودي كان حامل لواء الرفض ، ثم كان مقتل الحسين-رضي الله عنه- مقوياً لتيار الغلو عندهم ، ثم استمر خط التشيع في الانحراف حتى وصل الغلو إلى رفع الأئمة لدرجة النبوة ، بل وإلى مقام الألوهية عند بعض طوائفهم (27).
وكان تحكيم العقل في القضايا الشرعية وتعريب كتب الفلسفة من أسباب ظهور البدع في المجتمع المسلم ، إذ كان المعتزلة قد ضخموا دور العقل في القديم ، وكذلك القدرية والجهمية والمرجئة، فقد ضلوا من قبل لتحكيمهم العقل في أمور العقيدة ، وعدم قبول أي حديث يخالف ما تقرر في أذهانهم بحكم العقل أو تأويلهم له ، فأدى ذلك بهم إلى رد كثير من الأحاديث الصحيحة والطعن في رواتها (28).
ولذلك كان الجدل مذموماً ، قال -صلى الله عليه وسلم- :»أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم« (29).
وروي عن الأوزاعي قوله : »إذا أراد الله بقوم شراً ؛ ألزمهم الجدل ومنعهم العمل« (30).
وفي العصر الحديث ظهرت طوائف سارت على خُطى المدرسة العقلية الاعتزالية ، تحسِّن ما تشاء ، وترد من أحاديث المصطفى ما تشاء ، لتساير الحضارة الغربية في زعمها ، مدرسة عصرية عقلية ، بل مدرسة انهزامية أمام حضارة التيه والضياع ، تريد التفلت من تراثنا وسنة نبينا لتتبع الناعقين من اليهود والنصارى ولو دخلوا جحر ضب لدخلوه ، فقد قال -صلى الله عليه

وسلم- : »لتتبعن سَنَن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه ، قالوا : يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال : فمن؟« (31).
يروى عن الأوزاعي أنه قال : »اصبرْ نفسك على السُّنة ، وقِفْ حيث وقف القوم ، وقل بما قالوا ، وكف عما كفوا عنه ، واسلك سبيل سلفك الصالح ؛ فإنه يسعك ما وسعهم (32).
نعم يسع المسلم اليوم ما وسع سلفه الصالح من التمسك بالسنة الصحيحة ، والعقيدة الصافية ، وفي ذلك النجاة بإذنه تعالى من الضلال والانحراف وتشعبات الفرق الضالة.

حياتنا المعاصرة وبعض صور التقليد المذمومة :

في حياتنا المعاصرة ، وبعد أن أنعم الله علينا بالإسلام ، ترى أن اتباع الهوى والعرف والتقليد، ما يزال يحجب الحق عن عدد كبير من طوائف المسلمين ، والغلو بالشيخ أو الزعيم ما زال له دوره ، إن هؤلاء »يقلدون شيوخهم في الخطأ والصواب من أفعالهم ، ويأخذون عنهم كل ما يأمرون به أو يدعون له ، ولا يقبلون بهم نقداً أو نصحاً.. ورغم ذلك يزعم هؤلاء الأتباع أنهم مؤمنون بضرورة التجديد والتغيير ووجوب التمسك بالبينة والدليل«.
»تُرى لو جمد عقل صلاح الدين الأيوبي على مثل هذه الأفكار هل كان قادراً على دحر قوات العدو ، وتحرير القدس وبلاد الشام من دنس الصليبيين والباطنيين العبيديين؟ وهل كان شيخ الإسلام ابن تيمية قادراً على إصلاح ما فسد من عقائد الناس ، وتوحيد كلمة المسلمين وجمعهم على مواجهة التتار ، وما أعقبه من نصر؟ «.
»مثل هذه المناهج لا تصلح أن تكون أساساً للتغيير ووحدة صف المسلمين.. ، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لا نختصر الطريق ، ونعود إلى التمسك بالمنهج الأول الذي صلح به أمر هذه الأمة من قبل؟ ولا صلاح لأمتنا اليوم إلا به (33).
قال -صلى الله عليه وسلم- : »إن الإسلام بدأ غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ«(34).
لابد من العودة إلى منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله ، وإن تقديس الأضرحة والتبرك بها ، والتعلق بخرافات التصوف وتهويمات المشايخ ، أبعد كثيراً من المسلمين عن منهج السلف الصالح والتقيد بالكتاب والسنة.
إن الغلو في الشيخ أو الأمير أبعد كثيراً عن تحكيم دينهم ، لأنه لا يمكن أن يفهم هؤلاء كفهْم الشيخ أو الزعيم ، لأن الفتوى جاهزة ، وهذا بلاء وفتنة ، وتربية الأتباع لا الأحرار.
قال ابن عباس -رحمه الله-: »يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء ؛ أقول : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وتقولون: قال أبو بكر وعمر!«.

وقال الإمام الشافعي : »أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لم يكن له أن يدعها لقول أحد «. وقال أيضا : »إذا صح الحديث فاضربوا بقولي عرض الحائط«.
وقال الإمام مالك : »ما منا إلا راد ومردود عليه ، إلا صاحب هذا القبر -صلى الله عليه وسلم«. وقال : »ما كان من كلامي موافقاً للكتاب والسنة فخذوا به ، وما لم يوافق فاتركوه« (35).
إلا أن التقليد دفع البعض في العصور المتأخرة إلى التعصب الذميم البشع لآراء الأئمة وأقوالهم ، وتقديمها في أحيان كثيرة على النصوص الصريحة المخالفة لهذه الآراء والأقوال ...« (36).
رغم أن الأئمة كانوا ينهون من أخذ عنهم من مغبة التقليد دون معرفة الدليل الشرعي الذي أخذوا عنه رأيهم ، وأن الأئمة أنفسهم كانوا يرجعون عن رأيهم إذا تبيَّن لهم الدليل.
قال الشاطبي -رحمه الله-: »ولقد زل بسبب الإعراض عن الدليل والاعتماد على الرجال أقوام خرجوا بسب ذلك عن جادة الصواب والتابعين ، واتبعوا أهواءهم بغير علم ، فضلّوا عن سواء السبيل«(37).
وأخيراً : لابد من العودة إلى منهل النبوة الصافي وما كان عليه سلف هذه الأمة ، وطرح الأعراف والبدع المستحدثة. اللهم جنبنا الهوى وابعدنا عن الزلل. والحمد لله رب العالمين.

الهوامش :

1- رواه البخاري ومسلم ، واللفظ لمسلم.
2- مسائل الجاهلية: الشيخ محمد عبد الوهاب ، شرح السيد محمود شكري الآلوسي/127.
3- الفتاوى : ابن تيمية 35/240.
4- المصدر السابق ، والحديث في الصحيحين.
5- السيرة النبوية : ابن هشام 1/316.
6- سورة الصافات /35-36.
7- السيرة النبوية : ابن هشام 1/316.
8- المصدر السابق 2/293.
9- سورة النساء /93.
10- سورة الإسراء /33.
11- سورة البقرة /179.
12- سورة الزخرف /23-24.
13- سورة البقرة /170.
14- مسائل الجاهلية /7 ، 10.
15- سورة ص /6-7.

16- الكشاف الفريد ، خالد محمد علي الحاج 2/64.
17- الاعتصام ، للشاطبي 2/180 ، 362.
18- الاعتصام ، للشاطبي 2/180 ، 362.
19- رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس (انظر حاشية فتح المجيد /176.
20- قال النووي : حديث صحيح ، فتح المجيد /331.
21- رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح.
22- واقعنا المعاصر : محمد قطب /18.
23- الاعتصام ، للشاطبي 1/48.
24- رواه النووي في الأربعين.
25- سورة الجاثية /23.
26- الفتاوى : ابن تيمية 10/9.
27- انظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة : اللالكائي 1/37 ، 41-43.
28- انظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة : اللالكائي 1/41.
29- أخرجه البخاري في صحيحه ح : 4523 ، 7188.
30- رواه عبد البر : جامع بيان العلم وفضله 2 / 114.
31- أخرجه الشيخان ، :اللفظ لمسلم.
32- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة 1 / 154.
33- منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله ، محمد سرور زين العابدين 1 / 4 1 ، وما بعدها.
34- أخرجه مسلم في صحيحه.
35- انظر : الاعتصام 2/346 ، وفتح المجيد / 320.
36- الرأي السديد في الاجتهاد والتقليد : محمد إبراهيم شقرة.
37- الاعتصام للشاطبي 2/347 ، وفيه مزيد أمثلة لنماذج كثيرة.

شذرات وقطوف

»ليس كل خلاف يستروح إليه ، ويعـتـمـد عليه. ومن تتبع ما اختلف فيه العلماء ، وأخذ بالمرخص من أقاويلهم ، تزنْدق أو كاد« .

ابن الصلاح

»إن المبادئ والأفكار في ذاتها -بلا عقيدة دافـعـة- مـجـرد كلمات خاوية ، أو على الأكثر معان ميتة! والذي يمنحها الحياة هي حرارة الإيمان المـشـعــة

مـن قـلـب إنسان! لن يؤمن الآخرون بمبدأ أو فكرة تنبت في ذهن بارد لا في قلب مشع« .

سيد قطب

أحبُّ الفتى ينفي الفواحش سمعُهُ ... كأنَّ به عن كل فاحـشـةٍ وَقْــــرا
سليمُ دواعي الصدر لا باسطاً أذى ... ولا مانعاً خيراً ولا قائلاً هُـجــراً
إذا شئتَ أن تُدْعَى كريماً مكرمــاً ... أديباً ظريفاً عاقلاً مـاجـداً حـــرا
إذا ما أتت من صاحبٍ لك زلـــةٌ ... فـكـن أنـت محـتـالاً لزلته عـذرا
غِنى النفس ما يكفيك من سَدِّ خلَّة ... فإن زاد شيئاً عاد ذاك الغنى فقرا

سالم بن وابصة الأسدي

طبقات كتب الحديث (1)

شاه ولي الله الدهلوي

اعلم أنه لا سبيل لنا إلى معرفة الشرائع والأحكام إلا خبر النبي -صلى الله عليه وسلم-، بـخـلاف الـمـصـالـح، فإنها قد تدرك بالتجربة والنظر الصادق والحدس، ونحو ذلك، ولا سبيل لنا إلى معرفة أخباره - صلى الله عليه وسلم - إلا تـلـقـي الـروايـات الـمـنـتـهية إليه بالاتـصـال والعـنـعنة، سواء كانت من لفظه - صلى الله عليه وسلم -، أو كانت أحاديث موقوفة قد صححت الرواية بها عن جماعة من الصحابة والتابعين ، بحيث يبعد إقدامهم على الجزم بمثله لولا النص أو الإشارة من الشارع، فمثل ذلك رواية عنه -صلى الله عليه وسلم- دلالة. وتلقي تلك الروايات لا سبيل إليها في يومنا هذا إلا تتبع الكتب المدونة في علم الحديث ، فإنه لا يوجد اليوم رواية يعتمد عليها غير مدونة. وكتب الحديث على طبقات مختلفة ، ومنازل متباينة ، فوجب الاعتناء بمعرفة طبقات كتب الحديث.

فنقول :

هي باعتبار الصحة والشهرة على أربع طبقات ، وذلك لأن أعلى أقسام الحديث ما ثبت بالتواتر ، وأجمعت الأمة على قبوله والعمل به ، ثم ما استفاض من طرق متعددة لا يبقى معها شبهة يعتد بها ، واتفق على العمل بها جمهور فقهاء الأمصار ، أو لم يختلف فيه علماء الحرمين خاصة ، فإن الحرمين -محل الخلفاء الراشدين في القرون الأولى ومحط رحال العلماء طبقة بعد طبقة- يبعد أن يسلموا منهم الخطأ الظاهر ، أو كان قولاً مشهوراً معمولاً به في قطر عظيم ، مروياً عن جماعة عظيمة من الصحابة والتابعين ، ثم ما صح أو حسن سنده وشهد به علماء الحديث ولم يكن قولاً متروكاً ؛ لم يذهب إليه أحد من الأمة.

أما ما كان ضعيفاً ، أو موضوعاً ، أو منقطعاً ، أو مقلوباً في سنده ، أو متنه ، أو من رواية المجاهيل ، أو مخالفاً لما أجمع عليه السلف ، طبقة بعد طبقة ، فلا سبيل إلى القول به.

فالصحة: أن يشترط مؤلف الكتاب على نفسه إيراد ما صح أو حسن، غير مـقـلـوب، ولا شاذ ولا ضعيف، إلا مع بيان حاله، فإن إيراد الضعيف مع بيان حاله لا يقدح في الكتاب.

والشهرة : أن تكون الأحاديث المذكورة فيها دائرة على ألسنة المحدثين قبل تدوينها وبعد تدوينها ، فيكون أئمة الحديث -قبل المؤلف- رووها بطرق شتى ، وأوردوها في مسانيدهم ومجاميعهم ، وبعد المؤلف اشتغلوا برواية الكتاب ، وحفظه ، وكشف مشكله ، وشرح غريبه ، وبيان إعرابه ، وتخريج طرق أحاديثه ، واستنباط فقهها ، والفحص عن أحوال رواتها طبقة بعد طبقة ، إلى يومنا هذا ، حتى لا يبقى شيء مما يتعلق به غير مبحوث عنه ، إلا ما شاء الله ، ويكون نقاد الحديث قبل المصنف وبعده وافقوه في القول بها ، وحكموا بصحتها وارتضوا رأي المصنف فيها ، وتلقوا كتابه بالمدح والثناء. ويكون أئمة الفقه لا يزالون يستنبطون منها ، ويعتمدون عليها ، ويعتنون بها ، ويكون العامة لا يخلون عن اعتقادها وتعظيمها. وبالجملة: فإذا اجتمعت هاتان الخصلتان وكملا في كتاب كان من الطبقة الأولى ثَمَّ وتَمَّ ، وإن فقدتا رأساً لم يكن له اعتبار ، وما كان أعلى حد في الطبقة الأولى فإنه يصل إلى حد التواتر ، ومادون ذلك يصل إلى الاستفاضة ثم إلى الصحة القـطـعـيـة - أعـنـي: القـطـع المأخوذ في علم الحديث المفـيد للعمل - والطبقة الثانية إلى الاستفاضة ، أو الصحة القطعية ، أو الظنية. ، وهكذا ينزل الأمر.

فالطبقة الأولى :

منحصرة بالاستقراء في ثلاث كتب : الموطأ ، وصحيح البخاري ، وصحيح مسلم.

قال الشافعي: أصح الكتب بعد كتاب الله موطأ مالك، واتفق أهل الحديث على أن جميع ما فيه صحيح على رأي مالك ومن وافقه، وأما على رأي غيره فليس فيه مرسل ولا منقطع إلا قد اتصل السند به من طرق أخرى، فلا جرم أنها صحيحة من هذا الوجه ، وقد صنف في زمان مالك موطآت كثيرة في تخريج أحاديثه ووصل منقطعه، مثل كتاب ابن أبي ذئب، وابن عيينة، والثوري، ومعمر، وغيرهم، ممن شارك مالكاً في الشـيـوخ، وقد رواه عن مالك بغـيـر واسـطـة أكـثر من ألف رجل، وقد ضرب الناس فيه أكباد الإبل إلى مالك من أقاصي البلاد، كما كان النبي - صلى الله عليه وسلم - ذكره في حديثه (2)، فمنهم المبرزون من الفـقـهاء: كالـشـافـعـي، ومحمد بن الحـسن، وابن وهـب، وابن الـقـاسم، ومنهم نحارير المـحـدثـيـن: كـيحـيى بن سـعـيد القطان، وعبد الرحمن بن مهدي، وعبد الرزاق، ومنهم الملوك والأمراء:

كالرشيد، وابنيه، وقد اشتهر في عصره حتى بلغ على جميع ديار الإسلام ، ثم لم يأت زمان إلا وهو أكثر له شهرة ، وأقوى به عناية ، وعليه بنى فقهاء الأمصار مذاهبهم، حتى أهل العراق في بعض أمرهم ، ولم يزل العلماء يخرجون أحاديثه، ويذكرون متابعاته وشواهده ، ويشرحون غريبه ، ويضبطون مشكله ، ويبحثون عن فقهه، ويفتشون عن رجاله إلى غاية ليس بعدها غاية، وإن شئت الحق الصراح فقس كتاب الموطأ بكتاب الآثار لمحمد والأمالي لأبي يوسف تجد بينه وبينهما بُعد المشرقين ، فهل سمعت أحداً من المحدثين والفقهاء تعرض لهما واعتنى بهما؟

وأما "الصحيحان": فقد اتفق المحدثون على أن جميع ما فيهما من المتصل المرفوع صحيح بالقطع ، وأنهما متواتران إلى مصنفيهما ، وأنه كل من يهون أمرهما فهو مبتدع متبع غير سبيل المؤمنين. وإن شئت الحق الصراح فقسهما بكتاب ابن أبي شيبة، وكتاب الطحاوي، ومسند الخوارزمي ، وغيرهما ؛ تجد بينها وبينهما بُعد المشرقين.

وقد استدرك الحاكم عليهما أحاديث هي على شرطهما ولم يذكراها، وقد تتبعت ما استدركه فوجدته قد أصاب من وجه ولم يصب من وجه، وذلك لأنه وجد أحاديث مروية عن رجال الشيخين بشرطهما في الصحة والاتصال فاتجه استدراكه عليهما من هذا الوجه ، ولكن الشيخين لا يذكران إلا حديثاً قد تناظر فيه مشايخهما ، وأجمعوا على القول به والتصحيح له، كما أشار مسلم حيث قال: »لم أذكر هنا إلا ما أجمعوا عليه«. وجل ما تفرد به المستدرك كالموكا عليه (3)، المخفي مكانه في زمن مشايخهما، وإن اشتهر أمره من بعده، أو ما اختلف المحدثون في رجاله، فالشيخان كأساتذتهما كانا يعتنيان بالبحث عن نصوص الأحاديث في الوصل والانقطاع وغير ذلك ، حتى يتضح الحال ، والحاكم يعتمد في الأكثر على قواعد مخرجة من صنائعهم كقوله : زيادة الثقات مقبولة ، وإذا اختلف الناس في الوصل والإرسال والوقف والرفع وغير ذلك ، فالذي حفظ الزيادة حجة على من لم يحفظ ، والحق أنه كثيراً ما يدخل الخلل في الحفاظ من قبل الموقوف ووصل المنقطع ، لاسيما عند رغبتهم في المتصل المرفوع ، وتنويههم به ، فالشيخان لا يقولان بكثير مما يقوله الحاكم.والله أعلم. وهذه الكتب الثلاثة التي اعتنى القاضي عياض في المشارق (4) بضبط مشكلها ورد تصحيفها.

الطبقة الثانية :

كتب لم تبلغ مبلغ الموطأ والصحيحين ، ولكنها تتلوها ، كان مصنفوها معروفين بالوثوق والعدالة والحفظ والتبحر في فنون الحديث ، ولم يرضوا في كتبهم هذه بالتساهل فيما اشترطوا على أنفسهم، فتلقاها من بعدهم بالقبول، واعتنى بها المحدثون والفقهاء طبقة بعد طبقة، واشتهرت فيما بين الناس، وتعلق بها القوم شرحاً لغريبها، وفحصاً عن

رجالها، واستنباطاً لفقهها. وعلى تلك الأحاديث بناء عامة العلوم كسنن أبي داود وجامع الترمذي ومجتبى النسائي ، وهذه الكتب مع الطبقة الأولى اعتنى بأحاديثها "رزينٌ" في "تخريج الصحاح"، و"ابن الأثير" في "جامع الأصول"، وكاد "مسند أحمد" يكون من جملة هذه الطبقة، فإن الإمام أحمد جعله أصلاً يعرف به الصحيح والسقيم، قال: ما ليس فيه فلا تقبلوه.

الطبقة الثالثة :

مسانيد وجوامع ومصنفات صنفت قبل البخاري ومسلم، وفي زمانهما، وبعدهما، جمعت بين الصحيح، والحسن، والضعيف، والمعروف، والغريب، و الشاذ، والمنكر، والخطأ، والصواب، والثابت، والمقلوب، ولم تشتهر في العلماء ذلك الاشتهار، وإن زال عنه اسم النكارة المطلقة ، ولم يتداول ما تفردت به الفقهاء كثير تداول ، ولم يفحص عن صحتها وسقيمها المحدثون كثير فحص منه، ما لم يخدمه لغوي لشرح غريب ، ولا فقيه بتطبيقه بمذاهب السلف، ولا محدِّث ببيان مشكله، ولا مؤرخ بذكر أسماء رجاله - ولا أريد المتأخرين المتعمقين، وإنما كلامي في الأئمة المتقدمين من أهل الحديث -، فهي باقية على استتارها واختفائها وخمولها، كمسند أبى يعلى، ومصنف عبدالرزاق، ومصنف أبى بكر بن أبى شيبة، ومسند عبد بن حميد، والطيالسي، وكتب البيهقي، والطحاوي، والطبراني ، وكان قصدهم :جمع ما وجدوه ، لا تلخيصه وتهذيبه وتقريبه من العمل.

والطبقة الرابعة :

كتب قصد مصنفوها بعد قرون متطاولة جمع ما لم يوجد في الطبقتين الأوليين ، وكانت في المجاميع والمسانيد المختفية ، فنوَّهوا بأمرها ، وكانت على ألسنة من لم يكتب حديثه المحدثون ، ككثير من الوعاظ المتشدقين ، وأهل الأهواء ، والضعفاء ، أو كانت من آثار الصحابة والتابعين ، أو من أخبار بني إسرائيل ، أو من كلام الحكماء والوعاظ ، خلطها الرواة بحديث النبي - صلى الله عليه وسلم - سهواً أو عمداً ، أو كانت من محتملات القرآن والحديث الصحيح ، فرواها بالمعنى قوم صالحون لا يعرفون غوامض الرواية ، فجعلوا المعاني أحاديث مرفوعة ، أو كانت معاني مفهومة من إشارات الكتاب والسنة جعلوها مستبدة برأسها (5) عمداً ، أو كانت جملاً شتى في أحاديث مختلفة جعلوها حديثاً واحداً بنسق واحد ، ومظنة هذه الأحاديث كتاب : الضعفاء لابن حبان ، وكامل ابن عدي ، وكتب الخطيب ، وأبى نعيم ، والجوزقاني ، وابن عساكر ، وابن النجار ، والديلمي ، وكاد مسند الخوارزمي يكون من هذه الطبقة ، وأصلح هذه الطبقة ما كان ضعيفاً محتملاً ، وأسوؤها ما كان موضوعاً أو مقلوباً شديد النكارة. وهذه الطبقة مادة كتاب "الموضوعات" لابن الجوزي.

وهاهنا طبقة خامسة :

منها ما اشتهر على ألسنة الفقهاء ، والصوفية ، والمؤرخين ، ونحوهم ، وليس له أصل في هذه الطبقات الأربع ، ومنها ما دسه الماجن في دينه العالم بلسانه ، فأتى بإسناد قوي لا يمكن الجرح فيه ، وكلام بليغ لا يبعد صدوره عنه -صلى الله عليه وسلم- ، فأثار في الإسلام مصيبة عظيمة ، لكن الجهابذة من أهل الحديث يوردون مثل ذلك على المتابعات والشواهد فتهتك الأستار ، ويظهر العوار. أما الطبقة الأولى والثانية: فعليهما اعتماد المحدثين ، وحول حماهما مرتعهم ومسرحهم. وأما الثالثة: فلا يباشرها للعمل عليها والقول بها إلا النحارير الجهابذة الذين يحفظون أسماء الرجال وعلل الأحاديث ، نعم ربما يؤخذ منها المتابعات والشواهد ، و ((قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً)) ، وأما الرابعة: فالاشتغال بجمعها أو الاستنباط منها نوع تعمق من المتأخرين. وإن شئت الحق فطوائف المبتدعين من الرافضة والمعتزلة وغيرهم يتمكنون بأدنى عناية أن يلخصوا منها شواهد مذاهبهم ، فالانتصار بها غير صحيح في معارك العلماء بالحديث ، والله أعلم.

الهوامش :

1- هذا فصل من كتاب : (حجة الله البالغة) للعلامة شاه ولي الله الدهلوي ، رأينا أن ننشره مستقلاً لما فيه من الفوائد العلمية القيمة في هذا الموضوع.
2- وهو قوله -صلى الله عليه وسلم- : »يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم ، فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة«.
3- الموكا عليه : المستور الحال.
4- كتاب : مشارق الأنوار للقاضي عياض.
5- أي :مستقلة.

ومن مختارات الأخ عبد العزيز صالح الحجيلان وصلتنا هذه الأبيات :

اعـمــل بـعـلمك تغنم أيها الرجل	لا ينفع العلم إن لم يُحسن العملُ
الـعـلـم زيـــن وتـقـوى الله زينـتـه	والمـتـقـون لـهـم في عـلـمـهم شغل
وحـجــة الله يـا ذا الـعـلـم بالغة	لا المكر ينـفـع فيها لا ولا الحـيل
تعلـم العلم واعمل ما استطعت به	لا يُلْهِيَنَّك عـنه اللـهـو والجــدل
وعـلـــم الـنـاس واقصد نفعهم أبداً	إيـاك إيـاك أن يـعـتـادك الـمـلــل
وعــظ أخـاك بـرفـق عـنـد زلـتـه	فالعلم يعـطـف من يـعـتاده الزلـل
وإن تـكـن بـين قوم لا خلاف لهم	فامرر علـيـهم بمعروف إذا جهلوا
فإن عـصـــوك فـراجعهم بلا ضجر	واصبر عليهم ولا يحزنك ما فعلوا

شعر

كسرى عبر العصور

شعر : محمد أمين أبو بكر

كان كسرى سيِّدَ البلدانِ في الشرقِ الحزِينْ
تسجدُ القطعانُ في ميدانِهِ
تُعبَدُ النيران في بُلدانِهِ
تُذعِنُ الأقيالُ في إيوانِهِ
ترقُدُ الأصقاعُ في أحضانِهِ
كان علجاً ثابتَ الأركان في كلِّ مكانْ
يقهر الفرسان يرميهم إلى ،
بئر الهوانْ
يزهق الأرواحَ بالآلاف من ،
أجل بقاءِ الصولجانْ
في ربوع الكون أعلى برج عزٍ
ثابت البنيان

* * *

فجأة شعَّتْ
شموسُ الحق في ذاك الزمانْ
تأكل الأحقادَ والأحلاكَ ،
تسمو بالحنانْ
تجعلِ الأنجادَ والأغوار في الدنيا
جِناناً في جنانْ
في حماها كان ميلادُ الحضارةِ والسعادةِ
والمنى والعنُفوانْ

* * *

في ظلال الحقِّ والتوحيدِ والعزم الأكيدْ
زلزل الإسلامُ عرشَ الظلمِ والطغيانِ ،
والكفر العنيدْ
فازدهت بين الروابي الخضرِ أنسامُ الأمانْ
لم تدعِ في الأرضِ مخلوقاً ،
حزيناً أو كئيباً أو مهانْ

* * *

ثم جاءتنا عهودٌ ،
نامَ أبناءُ الأباةِ الفاتحينْ

عن دروب المجدِ عن
أبواب أسوارِ القلاعِ الشُمِّ والحصنِ الحصينْ
عن لصوصٍ داهموا بيتَ علي
وأبي بكر وعثمان وكلِّ المسلمين
واستطابوا النومَ في ليلِ الهوان الُمرِّ
دونَ العالمين
واستماتوا في حَمى التمثيل والتلحين في
ظُلَم السنين
والتقَوْا في موكب الرقص أُسوداً
تتحدَّى كلَّ أشكالِ المَنُونْ
فافتَقدْنا كلَّ أسفارِ العصور ،
الغرِّ وانتُهِبَ العرين
واستفاقت بعد طول النوم أنيابٌ لكسرى
تُغرقُ الأصقاعَ في حقدٍ جَديدْ
تستطيبُ النهشَ في الشعب الشريدْ
استباحَت في الدياجي ،
كل طهرٍ في إمامٍ أو عظيمٍ أو شهيدْ
لم تدعْ فينا صغيراً أو كبيراً ،
أو يتيماً أو وليدْ
دون أن تُصليه نار القهرِ والترويعِ ،
والحقد الشديدْ
تنهشُ الأطفال في حيِّ الخيام السودِ
في ليلِ الزمانْ
تزهق الأرواحَ في القدس وفي
لبنانَ ، في كل مكانْ
تدفن الأحلامَ والأمجادَ ،
بين مقابرِ الجولانِ والأغوارِ ،
في ليل الهوانْ
استباحت كلَّ أرماسِ الأولى ،
أحقاد ليل كسرويَّه
وارتوت أظفار (بن غوريون) من ،
سمل العيونِ القرشيِّه
في حمى إجرام أيد عربيِّه
جددت في الأرضِ أنهارُ دماءٍ سيرتها
في ليالي التيه أحقاد جيوشٍ تتريِّه
في دياجٍ ما رأينا مثلها ،

حتى زمان الجاهليَّة
حين أضحى في ربوع العربِ ،
من باعوا لكسرى سيف سعدٍ ،
ثم أهدوه خيولَ القادسيَّة
فى ربوع العرب من بيعوا لكسرى
كي يضيعوا بين أظفارِ المنيَّة
في ربوع العرب من أنسى شعوب العرب ،
ما لاقته من كِسرى عياناً
عندما خانوا أمانات العصورِ الراشدية
يوم عاموا في بحار الظلم ،
والطغيانِ في دم القضيَّةْ
ثم هدَّوا كل أسوار بناها
زحفنا الهدَّارُ في عهد "صلاح الدينْ"
يوم خانوا كل ما ائتُمنوا على أسرارِهِ
من نور أمجاد الكماة الغابرينْ
فارتوى "دايانُ" من دم الشهامة والكرامة والإباءْ
وانتشى "شارونُ" في تمزيقِ أشلاء المروءةِ والوفاءْ
وانتهى "بيريزُ" من سلب خيول
قادها "عقبة" في عصر العطاءْ
واشترى ما شادَهُ "عمروٌ" وأعلا صرحَهُ
يوماً بأنهار الدماءْ
يوم باعوا كل أسياف الأباةِ الفاتحينْ
يوم أهدوا للصوصِ الحاقدينْ
كل ما شادته في "اليرموكِ" في ،
"حطينَ" في "جالوتَ" ،
أفواجُ الأباةِ الخالدينْ
هكذا ظَنُّوا قطافَ النجم من عليائِهِ
هكذا خالوا بناءَ المجدِ في هذي السنينْ.

كلمة حول أحداث الحرم

وقعت أحداث الحرم بـيـنـما كان العدد الثامن تحت الطباعة.. وهذا أول عدد يصدر بعد هذه الأحداث ، ولأننا نعـتـقـد بـأن الفتنة التي افتعلت في بيت الله الحرام ليست حدثاً طارئاً تزول آثاره بعد بضعة شـهــور ؛ لذا وجدنا بأنه من

الواجب علينا تنبيه القارئ إلى حقيقة ما يدبره هؤلاء ضد أمتنا الإسلامية ، ونوجز كلامنا في النقاط التالية :
من يتتبع مسيرة بعثات الحج الإيرانية منذ قيام ثورتهم وحتى وقوع فتنتهم الأخيرة يعلم أنهم يخططون لما هو أبعد مما يـسـمـونـه مـظـاهـرة سـلـمـية.
وأنهم ليس في سجلهم البعيد والقريب أي نقطة إيجابية لصالح المسلمين ، بل هو مملوء بـالـكـيـد والـتـنـسـيـق مع أعداء الإسلام في الداخل والخارج.
والتاريخ الإسلامي زاخر بالشواهد على أن هؤلاء الباطنيين يتطلعون دائماً لـلـسـيـطـرة على مـكـة الـمكرمة ، ومَنْ من المسلمين لا يذكر صفات الذين سرقوا الحجر الأسود ، وروعــوا حجاج بيت الله الحرام ، وذبّحوا آلاف الحجاج الأبرياء الآمنين.
والتاريخ يعيد نفسه ، وهؤلاء يسيرون على خطا أولئك والأسباب التي يتذرع بها هؤلاء تدعو للضحك والسخرية .. فقد قالوا : إنهم يقومون بمظاهرات سلمية للتنديد بإسرائيل وأمريكا.. فهل إسرائيل وأمريكا موجودتان في الحرم؟!
وهل هؤلاء الذين يتخذون من سب إسرائيل وأمريكا في العلن غطاء لأحقادهم المدفونة بعيدون عن إسرائيل وأمريكا كما يدعون؟!.
إن أقل الناس معرفة -حتى الذين انخدعوا بالشعارات التي رفعها هؤلاء- صار يعرف ما وراء الـكـذب والـبـهـتـان الـذي يسـترون به مؤامراتهم وأراجيفهم.
وإن المسلمين الذين لم يحجب الله بصائرهم وأبصارهم كلهم مجمعون على كره أمريكا ، ويعرفون أنها هي السند الرئيسي لإسرائيل، والتي تعمل دائبة وبلا كلل على إجهاض أي توجه إسلامي صحيح، والأخذ بيد كل عدو للإسلام ، وليسوا بحاجة إلى هؤلاء الأدعياء كي يبصرونهم بحقيقة أمريكا وإسرائيل.
إن هدف هؤلاء الذي أكدته الوثائق لا يقف عند حدود هذه المظاهرات الغوغائية فقط ، بل يتعداه إلى ما وراء ذلك ، من نشر للفوضى في صفوف المسلمين ، وتدمير لبنية مجتمعاتهم، ولئن لم يستطيعوا أن يحولوا هذه البلاد تحت هيمنتهم فهم لم يخسروا شيئاً ، فالتنكيل لن يلاحقهم ، والتخريب والتدمير لن يمس ما يملكون ، وإنما سيقع على من ينخدعون بدعاواهم من الحمقى والمغفلين.
وخلاصة القول: أن هذه الفتنة ستستمر باستمرار هؤلاء الذين لا يجيدون إلا فن الشغب وبث الفوضى ، والذين جعلتهم أحوال المسلمين المتردية يؤدون دورا هداماً في العالم الإسلامي -ونقول (الإسلامي) وليس العالم الغربي أو الشرقي- عجزت أمريكا وروسيا عن تأديته ، والحذر وعدم الاغترار بدعاوى هؤلاء هو الأصل.

محنة جديدة للدعاة في تونس

نـفـذ حـكـم الإعـدام بـشـابـيـن تونسيين ، ونفذت أحكام أخرى تتراوح بين السجن المؤبد والسجن لمدد طويلة بمجموعة أخرى. وقد نقلت وسائل الإعلام العالمية ما صدر عن السلطة التونسية بشأن ذلك. ولا نريد ذكـر تـفـاصـيل ذلك ، وإنما نريد الإشارة إلى أن نتائج هذه المحاكمة كانت متوقعة ، وأن الأحكام لم تصدر يوم النطق بها رسمياً ، وإنما صدرت عند بدء الحملة الإعلامية الشرسة التي وظيفتها التمهيد ليكون وقع هذه الأحكام الظالمة خفيفاً على الناس،ولإحداث الصدى التبريري المناسب الذي يحجب العقلية المتغطرسة والمتعجلة التي تتميز بها هذه الأنظمة عند معالجة كل ما له تعلق بقضايا الإسلام والمسلمين .
ومنذ أن أسندت الدولة أمر محاكمة هؤلاء إلى محكمة برئاسة المدعي العام للدولة ، ظهر أنها لن تكون منصفة ولا عادلة في حكمها على هؤلاء ، فكيف يكون الخصم هو الحكم؟!.
ومن الدعاوى التي ساقتها السلطة للتنكيل: أن هؤلاء اتصلوا بإيران ، وقد أكد قادة حركة الاتجاه الإسلامي في بيانات أصدروها بأنه لا صلة لهم بإيران ، وأنهم يرفضون سياسة هذه الثورة ومنهجها.
ومن جهة ثانية : فإن الذين فروا تحت وطأة المطاردة كان من المنطقي أن يفروا إلى إيران التي ادعى أعداؤهم أنها تساندهم ، ولكنا نراهم قد التجأوا إلى جهات معادية لإيران.
أما عن القول بأنهم يؤيدون الثورة الإيرانية ؛ فإن كثيراً من المسلمين قد أيدوا هذه الثورة ، ورجوا منها الخير ثم تراجعوا عن ذلك ، وإن من الملفت للنظر أن أجهزة الإعلام عربية وغربية وقفت إلى جانب الإعلام التونسي الظالم وشاركته إصدار أحكامه على هؤلاء الشباب منذ البداية ، ولم يتنبه هؤلاء الذين لا يزالون يلوكون ألفاظ التطرف والتعصب حتى عافتها النفوس ومجتها الأسماع أن أساليبهم الفجة هذه هي التي تدفع الشباب المتسرعين دفعاً أن يقفوا منهم هذه المواقف التي يقذفونهم بسببها هذا القذف ، ويرمونهم عليها بأقذع الشتائم وأقبح الأوصاف.
فأين ادعاءات القائمين على هذا الإعلام بمسؤوليته التربوية والتوجيهية ، وحمله لواء الحرية والدفاع عن حقوق الإنسان والكشف عن الحقائق؟ ؛ إننا وبكل أسف لم نلمح ولم نحس حتى ولا من وراء السطور والكلمات أي أثر لتحذير النظام التونسي الإقدام على مثل هذه الجرائم المتكررة لتشويه صورة العاملين للإسلام عموماً ، مع أن مواقف هذا النظام في عدم حياده ومجافاته للحق معروفة بدءاً بعلمانيته التي يتفاخر بثمارها ، ومروراً بالاستهتار بأركان الإسلام كالصوم ، والاستهتار بالقرآن الكريم وبأحكامه ، وليست بعيدة تلك الفتاوى التي أصدرها كثير من أفاضل العلماء بردة رئيس هذا النظام وذلك حين تجرأ وسخر من كثير من الأحكام الإسلامية ومما عرف من الدين بالضرورة.. وانتهاء بمنع الحجاب ، فقد »صرح الهادي خليفة وزير الدولة

للتعليم الثانوي والابتدائي بتونس بأنه تقرر حظر ارتداء الطالبات زي المحجبات في مختلف المدارس والمعاهد والكليات" [القبس - 14/9/1987].
بل إن هذا النظام لا يكف عن الافتخار بما يندى له جبين المؤمن ، بل تثور له النخوة العربية، ألا وهو: فتحه لأبواب بلاده لأمواج الفساد العاتية التي تقذف بها الحضارة الغربية باسم السياحة وزيادة الدخل القومي ، حتى تحولت تونس الإسلامية على يديه إلى بلد يكاد يفقد هويته ، التي إن فقدها فقد تحول إلى (بالوعة) من بالوعات الفساد في هذه الحضارة الراهنة.
إننا في "البيان" نستنكر هذه الجرائم ضد الدعاة ، ونعتقد أن مسيرة الدعوة إلى دين الله لن توقفها مثل هذه التصرفات في بلد أنجب فحول العلماء والمجاهدين كالشيخ محي الدين القليبي.
كما إنها فرصة ليعيد الشباب المسلم في تونس النظر في مواقفهم ومناهجهم التي لم تسلم من دعاوى "العقلانية" ، وليبقوا على وفائهم لمنهج أهل السنة ، الذي لو لم يكن له إلا حفظ وحدة المغرب العربي الفكرية ، وتجانسه الثقافي لكفت مزية.

والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

من داخل روسيا

موسكو - 28 أيلول (سبتمبر) -رويتر :

تقول تاتيانا المطلقة الشابة :

»عندما تنام طفلتي أشعر بغصة فـي حلـقـي ، إنني أتوق في الحقيقة إلى صديق يشاركني كل أفراحي وأحزاني ، وابنتي الصغيرة تنتظر أباً«.
هذه شكوى تاتيانا (28) سنة ، فـي خـطــاب أرسلته لمحرر عمود : "القلوب الوحيدة" في صحيفة منظمة الشباب الشيوعي ، في أوكرانيا.
وبتصفح خطابات المحرومين من الـحـيـاة العائـلـيــة ، يستشف القارئ أن السلطات تبذل جهوداً منسقة لتخفيف وطأة مشكلة اجتماعية رئيسية في الاتحاد السوفيتي ، وهي: جمع شمل الملايين من العزاب والمطلقين ، وكثير منهم لديــه أطفال. وإعلانات القلوب الوحيدة فكرة جديدة إلى حد ما في الاتحاد السوفيتي ، حيث ظلت الأيدلوجية الرسمية تؤكد على مــدى سنوات أن الشيوعية قد حطمت الحواجز الطبقـيـة، وأزالـت العقـبـات مـن أمــام العلاقات الإنسانية.
وتستجيب أبواب القلوب الوحيدة ، مثل العمود الذي ينشر في صحيفة "كومسومولسكوي زناميا" الأوكرانية لشكاوى الباحثين عن الحياة العائلية في بلد ينتهي فيه زواج واحد من كل ثلاث زيجات بالطلاق ، ويزيد فيه عدد النساء غير المتزوجات على عدد الرجال غير المتزوجين بدرجة كبيرة جداً.

وتقول الصحيفة الأوكرانية التي بدأت نشر عمودها الأسبوعي ، وعنوانه :»أنا بانتظارك« منذ أربعة أشهر : أنها تتسلم حوالي ألف خطاب في اليوم.
وقـال خـطـاب يُـعـد نموذجاً لما يـتسلمه العمود : »أنتظر عمودكم دائماً وأنا على أحر من الجمر«.
وتقول "لود ميلا" ، و هي مطلقة في الرابعة والثلاثين من عمرها ، ولها ابن في العاشرة :
»لن أصف مأساتي ، سأقول فقط :إنه ليس باستطاعة كل امرأة قررت الرحيل ومعها طفل عمره شهر أن يكون رحيلها بعيداً بلا عودة على الإطلاق«!.
وفي خطاب آخر قالت "جالينا" التي تعيش في شبه جزيرة القرم :
»أنا في الثانية والعشرين ، ولي طفل عمره ثلاثة أشهر ، ونفتقد وجود رجل قوي. لقد تخلى رجل عنا ، ولكننا لا نعتقد أن كل الرجال مثله«.

واشتكت "ليلينا" المدرسة (28) سنة قائلة :

»إن زوجي السابق لا يقوم بأي دور في تربية ابننا ، وحتى لا يتذكره ، ومع كل يوم يمر أزداد اقتناعاً بمدى حاجة ابني إلى أب«.

لا للزوجة الموظفة :

ومن السمات البارزة في خطابات من رجال سوفييت التأكيد على أنهم لا يريدون أن تكون شريكات حياتهم موظفات طموحات.
فقد كتب فالنتين (29) سنة ومطلق ، الذي قال إنه يهوى التصوير : »أريد فتاة أو امرأة متعاطفة ، عمرها بين 25 ، 29 ، تتمتع بشخصية مرحة ، وتعرف أشغال الإبرة والطبخ وتوفير جو عائلي مريح«.
ويشاركه هذا الأمل ديمتري -كهربائي عمره 24 سنة- الذي قال :"إنه يعيش مع والدته وإخوته، وقال : »أريد فتاة متعاطفة ، تطبخ جيداً ، وتتمتع بالحيوية والطيبة«. وقال "ألكسندر" (21) سنة الذي أتم تدريبه كبحار في ميناء "أوديسا" على البحر الأسود:"»عمل البحار صعب ، ولكنه يصبح أكثر سهولة إذا انتظرت عودتك على الشاطئ فتاة مخلصة".
ويحرص بعض الرجال على التأكيد على أنهم لا يشربون (الخمور)، من أجل الفوز بقلوب النساء اللاتي يكرهن معاقرة الخمر.
ويقو ل "ألكسندر" : »ليس لدي عادات سيئة ، وأحب الرياضة ، وأنظر إلى الحياة العائلية بجدية ، وأريد أن تكون فتاتي رقيقة ، وأن تشاركني اهتماماتي«.
وتحرص كثيرات من النساء غير المتزوجات على التأكيد على أنهن سيصبحن زوجات وأمهات ممتازات.
وقالت "فالنتينا" (33 سنة) والتي تعمل مدرسة: »أحب الأطفال جداً، ولكنني لم أتزوج، وسعادتي الكبرى في القيام بالأعمال المنزلية«.

هذا التقرير يعكس الحياة الاجتماعية في البلد الذي يعد النموذج لتطبيق النظرية الشيوعية ويحاول كاتب التقرير أن يكون حيادياً ، وينقل شهادات صادقة من قِبل الرجال والنساء في روسيا، ولذلك فهو يبدو تقريراً وصفياً يحاول التقاط بعض الصور عن الحياة الاجتماعية تحط النظام الشيوعي.
إن العقيدة الشيوعية حاولت القضاء على كل الروابط العائلية الموروثة ، وسخرت من كل القيم التي أقامتها الأديان واحترمتها الأجيال ، مدفوعة بتفسيرها المادي للحياة ، ومؤكدة -بسطحية وتعصب ودموية- على أن تاريخ الجنس البشري هو تاريخ البحث عن الطعام فقط.
وبعد أن فند العقلاء هذه النظرية حتى قبل أن تطبق؛ هاهي ذي الشعوب التي رزحت تحت نيرها تعبر عن رفضها لها، وضيقها بها، ذلك لأن الفطرة البشرية قد تشوه وتمسخ، ولكن لا يمكن اقتلاعها من جذورها.
وفي مـكـان آخـر مـن هـذا الـعـدد مـن المجلة هناك شهادة أخرى عن الطرف الآخر لهذه الـحـضـارة - وهـو الـطـرف الـذي داس الـروابــط الـعـائـلـية والقيم الربانية باسم الحرية الفردية- ، نظرتان لم تحققا السعادة والاستقرار للجنس البشري ، وكل واحدة منهما دعت وتدعو الناس إلى احتقار كل القيم والمواريث الخلقية ، بحجة مختلفة مزعومة سواء حجة الإنتاج ، أو حجة الحرية الفردية.
يفتخر العبيد من أبناء المسلمين بما يسمى بتحرير المرأة سواء في الشرق أم في الغرب ، وتعجبهم صورة المرأة هناك ، حيث تزاحم الرجال كتفاً بكتف ، وتمارس المهن التي كانت إلى وقت غير بعيد وقفاً على الرجال ، وتعجبهم صورتها وهي تقود السيارة أو الطائرة ، وتقوم بما من شأنه أن يلفت إليها الأنظار ، ويوجه إليها عبارات التشجيع ؛ ولكن ينسون أو يتناسون أن الأنظار سرعان ما تصدف عنها ، أو التشجيع سرعان ما يحجب عنها ليصرف إلى أخرى أصغر منها سناً ، وأكثر منها جاذبية ، وأنها بعد قليل ستلتفت لترى نفسها وحيدة في صحراء قاحلة ، أو في سديم قطبي متجمد.
إن المقولة التي قدمت على أن الدولة تستطيع أن تربي وأن ترعى وأن تعول مقولة لا تثبت عند الفحص والاختبار ، فلئن استطاعت الدولة أن تتكفل بالرعاية المادية والصحية لرعاياها ، فهل هي قادرة على تأمين العلاقات الاجتماعية التي لا غنى لهم عنها؟!
إن الناظر بتأمل وتعقل إلى حياة هؤلاء الذين تفلتوا من كل ما يربطهم بوحي السماء ، وإلى المنزلة التي آلت إليها المرأة عندهم لَيَشعر بالإشفاق والرثاء -والله- ، على الرغم مما يتمتعون به من تقدم مادي ، وليس غريباً أن تسود الأمراض الاجتماعية المدمرة ، والأمراض الأخرى التي تهدد البشرية بعد أن انعتقوا من كل الروابط ، وأصبح المشروع مستهجناً والمحرم مألوفاً ، فسخروا من الزواج ونفروا منه ، وحولوا العلاقات العائلية والروابط الاجتماعية إلى علاقات ميكانيكية بعد أن انصرف الرجال عن الزواج نتيجة لتشجيع

العلاقات الجنسية الحرة دون تحملهم لما يترتب على الزواج من أعباء وشعور بالمسؤولية ، أصبح على المرأة أن تواجه وحدها جفاف هذا المجتمع ، وأصبحت الضحية الأولى التي تنعكس عليها تناقضاته وعيوبه ، فهي راكضة لاهثة أبداً ، تركض في مبدأ حياتها لتتعلم ، ثم تركض لكسب وظيفة تعيش منها ، ثم تركض وتلهث وراء "الموضة" لتلفت إليها شاباً متقلب المزاج لا يلبث أن ينصرف عنها إلى غيرها ، لأنه حر لا رابط ولا وازع ، فتبدأ المحاولة من جديد تجاه ثان وثالث.. وهكذا هي مسعورة بين حاضر ليس له لون ولا طعم ، وبين مستقبل مكشر يتهيأ لتلقي بنفسها بين فكيه وحيدة منبوذة.

إن قيمة المرأة عند المسلمين لا تزيدها الأيام إلا ارتفاعاً ، بينما هي عند الماديين ممن أعماهم بريق هذه الحضارة الزائف لا تزداد على الأيام إلا هبوطاً. ونحن هنا لا نعمم ، ولا ندعي أن مجتمعاتنا خالية من العيوب ، وإلا فقد انتقلت إلينا كثير من المفاهيم الخاطئة ، فبدأنا نرى التسيب العائلي والتخلي عن المسؤولية من قِبل كل من الرجل والمرأة ، وخاصة في بعض الأسر الغنية.

وعلى هذا، فأي قيمة تبقى للأرباح المادية -مهما كانت- إذا خسر الإنسان تربية أولاده، وتخلى عن رعايتهم.

إن الرجال هم الرجال ، والنساء هن النساء ، في أي مجتمع كانوا ، وأي عقيدة اعتنقوا ، وإن نداء الفطرة يقول : إن الرجل يبحث عن المرأة التي تعمر البيت بوجودها وحركتها ، لا عن التي تملأ المعامل والمكاتب والشوارع بينما تخلف وراءها بيتها فريسة للفراغ والخراب. والمرأة تبحث عن الرجل الذي يقف إلى جانبها خلال حياتها كلها ، فيرعاها وأطفالها ، لا الذي يعجب بها في لحظة عابرة ثم يتركها إلى غير رجعة. وماعدا ذلك فزيف وتصنع أو جهل وعمى. ((وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ)) [الحج:3-4]

مهمة الإعلام الإسلامي

بقلم : عبد الرحمن نموس

لـيـست مهمة الإعلام الإسلامي إلا تبليغ رسالة الإسلام وتوضيح صورتها أمام من جهـلها والـذود عـنها ضد من عادها وما كان رسولنا الكريم إلا مبلغاً لهذه الرسالة عندما نزلت من السماء وفق الأمر الإلهي في قوله تعالى : ((يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّـكَ وإن لَّمْ تَفْعَلْ فَـمَـا بَـلَّـغْـتَ رِسَـالَـتَـهُ واللَّـهُ يَـعْـصِـمُـكَ مِـنَ الـنَّـاسِ إنَّ اللَّـهَ لا يَـهْـدِي الـقَـوْمَ الكَافِرِينَ))[المائدة: 7].

فنهض صلوات الله وسلامه عليه في أداء المهمة ، وقام بإبلاغ الرسالة حتى أتاه اليقين وقد شهدت له أمته بذلك.
ففي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال فـي خطبته يومئذ : »يا أيها الناس إنكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس : اللهم اشهد (ثلاث مرات).
وإذا كان الرسول -صلى الله عليه وسلم- هو قدوتنا وأسوتنا ((لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ والْيَوْمَ الآخِرَ)) [الأحزاب / 21].
وإذا كانت الرسالة قد أنزلت للناس كافة ((وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا)) [سبأ / 28] وإذا كنا مطالبين بقوة بالاقتداء بالرسول الكريم -صلى الله عليه وسلم- ، وفي نشر هذه الرسالة والحفاظ عليها ، فإن ذلك يتطلب منا أن نبذل أضعاف ما نبذل من الجهد ، وأن ننهض للذود عن أنفسنا وعن المليار مسلم الذين عبث بهم السيل ما عبث ، وعن الدين الذي ارتضاه ربنا لنا وبه صرنا "المسلمين".
وللإعلام -الذي يمكن أن يسمى "تخصيصاً" بالعملية الإعلامية ، من حيث البث والاستقبال وأدوات البث- عدة عناصر :
أ- رسالة تشكل محور العملية الإعلامية.
ب- مرسِل يقوم على بث هذه الرسالة.
ج- وسيلة يتم بها الإرسال.
د- مستقبل هو المستهدف من هذه الرسالة.
والرسالة : هي مجموعة الأفكار التي يتم التعبير عنها بإشارات لغوية تكون في الغالب على شكل أحرف أو كلمات تتحول إلى جمل مفيدة تترك أثراً في نفس مستقبليها سلباً أو إيجاباً ، ويسعى المرسل من خلالها إلى تحقيق هدف معين.
أما المرسِل : فهو الشخص الذي يبث الرسالة الإعلامية عبر وسيلته المناسبة بغية تحقيق أهداف معينة قد تكون تعزيز مبادئ وأفكار معينة ، أو تعديلها ، أو محاربتها ، أو تأييدها. ومستقبل الرسالة هو كل من يتلقاها وتترك فيه انطباعاً ما ، سلباً أو إيجاباً ، أما انعدام الأثر بالكلية بالنسبة للمستقبل فلا يعد استقبالاً لها ولو سمعها أو قرأها ، لأن للتفاعل معها دورا أساسياً.
والوسيلة هي الشيء الذي يتم من خلاله نقل الرسالة ، كالصحيفة أو المذياع.. ويختار المرسل عادة الأسلوب الذي يراه جيداً لإيصال رسالته إلى أذهان مستقبليها وهو في ذلك لا يخرج عن أحد الأساليب الثلاثة التالية :
1- التعرض للفكرة أو الظاهرة المطروحة في الرسالة من خلال بعدها الوصفي ، كأن يتناول ظاهرة اجتماعية معينة ويصفها وصفاً دقيقاً من خلال واقعها ، دون أن يزيد على ذلك أو يضع آراء من عنده تبين سلبية أو إيجابية

هذه الظاهرة ، وبالتالي يترك القرار النهائي للمستقبل في أن يستوعب هذا الوصف ويقيمه من منظوره الخاص ، ويخلص إلى نتيجة هذا التقييم بنفسه دون تدخل مباشر من المرسل ، الذي قد يلجأ إلى الإيحاء الخفي في إبداء ما يريده من وصف تلك الظاهرة.
2- التعرض للفكرة من خلال بعدها الوصفي مع إضافة تقييم موضوعي لهذا الوصف ، وذلك بأن يتعرض المرسل للفكرة أو الظاهرة فيصبغها الوصف الدقيق كما في الفقرة الأولى ثم يتبع هذا الوصف بتقييم موضوعي يبين فيه الجوانب المضيئة في الظاهرة والجوانب المظلمة ، وقد يجري موازنة بين هذه وتلك ثم يتوقف تاركاً للمستقبل التوصل إلى النتيجة التي يريدها هو ويريد للمستقبل أن يصل إليها. أو قد يزيد على ذلك بأن يقدم النتيجة التي وصل إليها بعد التقييم بنفسه ، ولكنه يترك للمستقل حرية الالتزام أو عدم الالتزام بها.
3- التعرض للفكرة أو الظاهرة وتبيان أبعادها ولو بصورة موجزة ثم التزام موقف حيالها وحض أو تحريض المستقبل صراحة على تبني موقف المرسل من الظاهرة.
وذلك بأن يعرض المرسل للظاهرة أو الفكرة من منظوره الخاص ويقيمها ويصل إلى نتيجة ويؤكد أن نتيجته هي الصحيحة وما سواها خطأ ويلزم بالتالي المستقبل على الأخذ بما قدمه له على أنه الصحيح ولا يترك له الحرية للتفكير جيداً بها ، بل قد يهمل المرسل الذي يلجأ إلى هذا الأسلوب الوصف والتقييم الموضوعيين ، ويقدم النتيجة التي يريدها ، ويضع لها من المبررات ما يشاء حتى يقنع المستقبل بها ، ويحضه على تبنيها ، الأمر الذي قد يصل إلى حد ازدراء آراء المستقبل وخلفيته الثقافية وقدراته على تقييم الظواهر والأفكار مما يؤدي بدوره إلى رد فعل سلبي عند المستقبل قد يجعله في الموقف المضاد -إن استطاع- وفي موقف السكوت على مضض إن لم يستطع.
ويخرج عن هذا الضبط القرآن الكريم بما فيه من منهج إعلامي رباني ، ولأنه كلام الخالق وليس كلام بشر يستوي فيهم المرسل والمستقبل ، ففي القرآن الكريم الحكمة والموعظة الحسنة ، وفيه الجدال بالتي هي أحسن ، وفيه الترغيب وفيه الترهيب ، وفيه الوصف ، وفيه التحريض ، ومثل ذلك السنة النبوية ، فالرسول -صلى الله عليه وسلم- وإن كان بشراً لكنه بالإضافة إلى ذلك هو نبي مرسل ((ومَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى * إنْ هُوَ إلاَّ وحْيٌ يُوحَى)) [النجم: 3-4].
أما ماخلا أسلوب القرآن العظيم والسنة النبوية الشريفة فيكون من المناسب أن لا يشعر مرسل الرسالة الإعلامية مستقبلها بأنه من طبقة أدنى مستوى أو أقل فهماً حتى لا يجعله عرضة للمواقف المبنية على ردود الأفعال.
وهنا تبدأ أهمية شخصية المرسل في اختيار الأسلوب الإعلامي الأنجع الذي يمكن ممارسته تجاه مستقبلي الرسالة ، خصوصاً وأن عدداً لا يستهان به من

المستقبلين لا يستقبل رسالة المرسل وحده ، بل يستقبل رسائل من ألوان شتى تجعله يعيش في بحر متلاطم الأمواج من المعلومات الصحيحة والخاطئة ، الغثة والسمينة تجعلهم يتيهون بين الخطأ والصواب ويتعثرون في الاهتداء إلى القيم من غيره. والإعلام الإسلامي وسط هذا البحر الكلامي الهائج هو الأقدر على أن يمثل نقاط العلام البارزة التي تهدي الحائر من عامة المسلمين أو غيرهم إلى الطريق الصحيح ، وهو إذ يفعل ذلك لا بنوعية الورق ولا بحجم الكلام المكتوب أو كمية البث المسموعة بل بالإنسان المرسل الذي أوكلت إليه مهمة الإرسال أياً كانت الطريقة. وهذا ما يؤكد على أهمية المرسل في العملية الإعلامية ، لذا فمن المناسب بيان أهم الصفات التي يتحلى بها المرسل الإسلامي الناجح ، وهي :
أ- الأسوة الحسنة : وتكون الأسوة الحسنة من وجهين :
الأول : أن يتأسى المرسل أو على الأقل أن يجتهد للتأسي بأخلاق وأسلوب الرسول الكريم -صلى الله عليه وسلم- في التبليغ والدعوة وغير ذلك فهو المشهود له بالأخلاق العظيمة من رب العالمين ((وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)) [القلم:14] وهو القائل -صلى الله عليه وسلم- : »بعثت لأتمم حُسْنَ الأخلاق«(1) والله سبحانه وتعالى حضَّنا على أن نتأسى برسولنا الكريم بقوله سبحانه وتعالى : ((لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)) [الأحزاب:21].
والثاني : أن يكون المرسل بتحقيقه للبند الأول أسوة حسنة لمن يبلغهم رسائله لأنه إن تخلت عن هذا المعنى فلن يجد الأذن الصاغية لكلمته أو العين القارئة لعبارته ، ويكون إضافة لذلك قد تخلف عن جوهر أساسي يدعو إليه في رسائله ووقع فيمن وصفهم الله عز وجل بالمقت في قوله : ((يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ)) [الصف:3-4].
ويدخل في إطار الأسوة الحسنة انسجام القول مع العمل كما بينت الآية الكريمة ، إذ يشكل هذا الانسجام بين القول والعمل نقطة أساسية تعين المستقبل الذي يستقبل كماً هائلاً من المعلومات المختلفة التي تدعو إلى تبني أفكار ونظريات شتى على اختيار الأسلم والأصح ، وتجعله يكبر ويحترم الرسالة التي أخلص لها مرسلوها وانسجموا معها فجاءت نابعة من القلب قابلة لأن ينسجم معها المستقبلون.
وحقيقة نواجهها جميعاً هي أن الكثيرين لا يميزون بين حقيقة الإسلام وبين المسلمين إذ يرون الإسلام فيهم فإن أساءوا كانت الإساءة للإسلام والعكس صحيح.
2-أن يتخلق المرسل الإسلامي بأخلاق القرآن اقتداءً بالرسول الكريم -صلى الله عليه وسلم- الذي قالت عنه عائشة رضي الله عنها : "فإن خلق نبي الله -صلى الله عليه وسلم- كان القرآن"(2) ، وعندما يتحقق ذلك بالمرسل يكون قد امتلك زمام الأمر تجاه مستقبلي رسالته بحيث يجدون أنفسهم أمام إعلام

ملتزم منسجم لا ينبني على مراوغة ولا على دجل ، الأمر الذي يسهل لهم ويمهد سبيل الاقتناع بالرسالة وتبنيها. ويوضح لهم الفارق بين الرسالة الإسلامية الواقعية والرسائل الأخرى التي بنيت على نظريات من خيال أصحابها ولم تنجح بحال -في معالجتها لمشاكل الإنسان- من الإفراط أو التفريط.

3- الإيجاز والبيان وعدم الإلحاح : فالكلام الكثير ينسي بعضه بعضاً وتضيع قيمته بذلك ، أما الإلحاح والكثرة فقد تسبب السآمة للنفس ، فعن أبي وائل شقيق بن سلمة قال : كان ابن مسعود -رضي الله عنه- يذكّر الناس في كل خميس مرَّة ، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن: لوددت أنك ذكَّرتنا كل يوم ، قال : »أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملّكم ، وإني أتخولكم بالموعظة كما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يتخولنا بها مخافة السآمة علينا«(3).
والتكرار الذي قد يظن صاحبه أنه من الأدب والبلاغة قد يكون تكراراً غير محمود يجعل ما دخل في القلب يتطاير مرة أخرى ، وما قبلَتْه النفس وهو جديد تعافه نتيجة التشدق به والإعادة.

4- عدم استخدام وسيلة الإرسال أياً كانت كمنبر للردود الشخصية أو الهجمات اللاذعة غير المبنية على أساس علمي واضح ، إذ يجب أن تسمو الوسيلة الإعلامية عن ذلك وتترفع ، مستمرة في أداء رسالتها الأصلية وفق منهجها الواضح ؛ فللشريعة أساسياتها المتينة والثابتة التي منها ينطلق العمل الإعلامي والدعوي ، وأما مما اختلف فيه من نقاط على الدرب فتعالج بالأساليب الخاصة بها من غير التعرض والتعرض المضاد في الوسيلة الإعلامية ، حتى تحافظ هذه على مستوى رفيع من الأخلاقية الإسلامية ، التي منها يستنشق المدعو أو المستقبل رائحة الرسالة الناجحة الهادفة.

5- إن الرسالة الإعلامية الإسلامية تعتمد على خصائص ثابتة تمثل خصائص الشريعة نفسها من ثبات وشمولية وواقعية ومرونة وصلاحية ، وبالتالي فإن مضمون الرسالة ينطلق في هذه الخصائص، ولكن سر نجاح أو فشل تلك الرسالة يرتبط بمقدار معرفة وخبرة المرسل بمستقبِلي رسالته ، هذه المعرفة والخبرة التي تمكنه من أن يقدم لكل جمهور مادته المفضلة عبر وسيلته المفضلة ، وواضح أن لكل وسيلة جمهورها ولكل رسالة مستقبليها ، والخبرة والفراسة في ذلك هي سر النجاح ، إذن: إن إساءة الاستخدام في هذه النقطة تؤدي إلى نتائج عكسية غير ما يتوخاه المرسل.

6- المعرفة الجيدة بالإعلام المضاد وبمخططاته والعمل على صدها وردها بالأدلة العلمية الدامغة لا بالهجمات الكلامية الفارغة ، لأن المستقبل الذي اعتاد أن يستقبل رسالة واضحة مدللة بأدلتها التي تدحض فيها ظاهرة أو تؤيد فكرة يجد من غير المألوف ومن غير المقنع أن يلجأ المرسل إلى مجموعة عبارات محشوة بالشتم والسباب على الإعلام المضاد ، لأنه تصرف كذا أو

وقف موقف كذا، دون أن يبين المرسل إلى أي شيء استند في موقفه ، وعلى أية أدلة ارتكز في مواجهته.
إن المستقبل الذي يستقبل الرسائل الإعلامية الإسلامية قد وعى تماماً ماذا يعنيه طرح الشعارات الرنانة التي تدين اتجاهاً أو فكراً أو ظاهرة ، أو تؤيد ذلك الاتجاه أو الفكرة أو الظاهرة ، وهو اليوم بحاجة إلى منهج إعلامي واعٍ تحمل رسائله له ما يريح النفس ويقنع العقل ، ويواجه الأعداء الذين لا ننتظر منهم السكوت بالأدلة القادرة على إسكاتهم ، والبراهين الباترة لادعاءاتهم.
7- معالجة الأخطاء التي يتعرض لها المرسل خلال بث رسائله بهدوء وتروٍ وبصيرة ، لأن الاعتماد على الإصلاح العاطفي أو المبني على ردود الفعل العصبية سيؤدي بالضرورة إما إلى الإفراط أو التفريط ، ومن هنا وجب الحذر والدقة في معالجة أخطاء المرسل ، مع وضع قاعدة "كل ابن آدم خطاء" بالحُسبان.
وبعد هذا الاستعراض الموجز لأهم صفات مرسل الرسالة الإعلامية الإسلامية ؛ لابد من الإلماع إلى أهم العقبات التي تقف حجر عثرة في وجه تقدم تلك الرسالة ، أو على الأقل تعيق تقدمها بشكل ملحوظ.. ومن ذلك :
1- عدم الالتزام الفعلي والجيد بالمنهج الرباني الموضوع لنا ، ويبدو ذلك واضحاً من خلال تناقض الكثيرين من أصحاب الرأي المستنير بين قول وعمل.
ومن ذلك : أن تقع بأيدي بعض الشباب محاضرة أو موضوع عن الغيبة والنميمة وأثرهما السلبي في البناء الإسلامي ، ثم ما نلبث أن نصل إلى نهاية المحاضرة أو الموضوع حتى نرى لمزاً أو غمزاً بشخصيات إسلامية من مستوى صاحب المحاضرة أو أعلى مستوى. إننا نهاجم فعلاً معيناً وفق نصوص وأدلة شرعية واضحة ، ثم نأتي على ارتكاب ذلك الفعل ، متخذين لأنفسنا مبررات تقنعنا بضرورة خوض ذلك الغمار ، جهلاً أو تجاهلاً ، أو اتخاذ أعذار قد تقنعنا ولا تقنع أحداً غيرنا ، ولربما لم تقنعنا أصلاً ولكننا تصنَّعنا الاقتناع.
2- الاستهانة ببعض المخالفات الشرعية أمام أكذوبة "ضرورات العصر".
فالإعلام الإسلامي إعلام عقائدي يتمثل بقواعد ومبادئ راسخة ينمو بنمائها ويزدهر بازدهارها في أنفس المسلمين ، ولكن بعض هذه المبادئ أو القواعد قد يتم نقضها بحجة "ضرورات العصر" أو لأنها أمور صغيرة هنالك ما هو أهم منها بكثير ، أو لأن البعض يعتقد أن نمو الإسلام وتقدمه لا يتوقف عليها.
وأمثلة بسيطة على هذه الأمور :
"التصوير ، التدخين ، حلق اللحية بغير ضرورة ملجئة ، الاختلاط أحياناً" ، علماً أن هذه الأمور جميعاً تخل بسلوك المسلم إخلالاً كبيراً ، شعر بذلك أم لم يشعر ، اعترف بأثرها السلبي أم لم يعترف.
وإذا كان لمثل هذه الأمور أثرها السلبي في نمو شخصية أي مسلم ، فكيف يكون أثرها بالنسبة للقائم على توجيه الرسالة الإعلامية الإسلامية..؟! إنه تساؤل جدير بالإجابة. ولكل قارئ أن يجيب بنفسه.

3- النقص العام وعدم التكامل في التوجيه :
يبدو واضحاً أن أغلب الرسائل الإعلامية الإسلامية تتوجه هذه الأيام إلى المواعظ المتعلقة بالأعمال العبادية المحضة ، وبالرغم من ضرورة هذه وموقعها الأساسي في الإعلام الإسلامي فالواجب عدم الاقتصار عليها ، فالإسلام دين متكامل يتسع لكافة أمور الحياة ، وبالتالي يلزم تنوع الرسائل بتنوع المستجدات وحسب أولويات مدروسة.
إضافة إلى ذلك :فإنه من المفيد جداً وضع خطط يتم تنفيذها وفق جداول زمنية معينة وبعد دراسة موضوعية شاملة ، بحيث تؤدي هذه الخطط في النهاية إلى النتيجة التي يتوخاها المرسل.

أسباب نجاح العملية الإعلامية :

مما تقدم يتبين ، بأن الإعلام الإسلامي يعاني من عقبات عدة تستلزم بالضرورة العمل الجاد لإزاحتها والتغلب عليها ، وربما كان الخوض في هذا المجال خوضاً في مجال واسع لا يسعني عرضه مفصلاً هنا ، ولكن أعرض بعض النقاط التي إنما تعبر عن وجهة نظرٍ ، أدعو الله أن تلاقي القبول.
1- اختيار الكفاءات الصالحة والقادرة على القيام بهذا العبء :
فمعلوم أن القائم على العملية -وخصوصاً توجيه الرسائل- هو العنصر الأهم فيها ، وبالتالي فإن العمل على إنجاح هذه العملية يستوجب أن يكون القائم عليها أهلاً للمهمة من حيث المستوى العلمي والإدراكي ، ومن حيث النظرة الشمولية لمتطلبات العمل ، والأفق الواسع الذي يمكن من وضع المخططات التي تضمن أحسن النتائج.
إن العلاقة التي يمكن أن تقوم بين المرسل ومستقبلي الرسالة علاقة تحتاج إلى مزيد من الدقة في التعامل ، فالمستقبلون يتلقون الرسائل فينسجمون مع بعضها ويحبون بعضها ويمتعضون من قسم منها ، وقد تثور ثائرتهم على جزء منها نتيجة خلفية خاطئة عنها أو جهل مستعص بها ، فكيف يتعامل القائم مع ذلك الاختلاف؟! إنه أمر خاضع -بالإضافة إلى العلم والإدراك وسعة الأفق- إلى مقومات شخصية تستطيع أن تستوعب هذا الاختلاف المؤقت وتحيله انسجاماً ووحدة في النظر عند الجميع حتى يتشكل عند المتلقين جميعاً ، شيء أهم من الرأي العام وأرفع ، وربما كان الصبر الطويل واحداً من مقومات تلك الشخصية.
2- تحري الدقة التامة بمصادر بعض الرسائل الإعلامية :
إن المصادر الأساسية لرسالة الإعلام الإسلامي مصادر موثوقة بذاتها كالقرآن الكريم والسنة النبوية ، ولكن الأمر يختلف عندما تعترض العمل أحداث مستجدة لابد من طرحها وقضايا معاصرة لابد من معالجتها ، فمن أين نأتي بالمصادر الموثوقة لمثل ذلك؟

هل نعتمد على وكالات الأنباء العالمية ونكون بذلك مروجين لكذبها وإشاعاتها؟
أم نعتمد على ما تتناقله بعض الوسائل الإعلامية الأخرى من غير فحص ولا تحرٍ ولا تدقيق؟
أم يكون لنا تميزنا بهذه وتلك ، واستقلالنا بالعرض والتحليل دون تأثر أيضاً بهذه وتلك؟.
فالغلط أو الكذب في وسيلة الإعلام الإسلامية لا يتساوى أبداً مع الغلط أو الكذب في أي وسيلة إعلام أخرى ، بل هي أضعاف ذلك ، لأن الغلط وإن كان مبرراً شرعاً فهو غير مبرر في الغالب عند المستقبل ، بل هو أحياناً لا يريد أن يبرر ، لأن الغلطة غلطة موجِّهه وليست غلطة تلميذه.
أما الكذب بالإضافة لكونه خرقاً للشريعة هو عمل سلبي كبير ، يراه المستقبل وصمة تهز كيان الاستقبال عنده ، وفي هذا خطر لا يخفى. ولتلافي ذلك لابد من الركون إلى مصادر مؤهلة ثقة وصدقاً وإدراكا وتحليلاً ، تعين المستقبل على تلقي رسالة صادقة متميزة.
3- وضوح الهدف : إن معرفة ما يريده المرسل من رسالته بوضوح ، ومعرفة كيفية بث الرسالة بالشكل الذي يحقق له ما يريده أمر غاية في الأهمية ، فإذا كان هدف الإعلام الإسلامي إعداد الجيل العقائدي الواعي الذي يفهم الإسلام على أنه دين عبادة وعمل ، وشرْع دنيا وآخرة ، ومنهج حياة متكامل ، فإن عليه أن يعد لإيجاد هذا الفهم في أذهان المستقبلين ، علماً أن هذا عملاً غير سهل في إطار التنوع الإعلامي وتعدده ، ولكن عدم السهولة لا تعني الاستحالة ، فباعتماد أسلوب العمل المنظم والصحيح يتمكن المرسل -بإذن الله- تحقيق هدفه ، وتبدو أهميته واضحة للتكامل في بث الرسائل في هذا المجال.
فعندما يكون لكل رسالة إعلامية على حدة هدف خاص تسعى لتحقيقه من خلال منهج مرسوم لا من خلال تعبئة صفحات أو سد فراغ في برنامج مسموع ، وعندما تلتقي أهداف هذه الرسائل في محصلة عامة من غير تناقض ، ساعيةً إلى إيجاد الشخصية المتكاملة ، وعندما يتحقق الانسجام الكامل بين الأهداف الجزئية المرسومة لكل رسالة على حدة ، والهدف العام الذي يجب أن تلتقي عنده كافة الرسائل لتصب في توجه فكري معين ، نكون قد خطونا خطوة هامة في العمل على تحقيق الشخصية الإسلامية المتكاملة عند متلقي الرسالة.
ويبقى لمقدار استجابة المتلقي نفسه ، ولمقدار تأثير المرسل بالمتلقي حتى يجعله متكيفاً أكثر من الاستقبال أثرٌ آخر في تحقيق الهدف المنشود.
وربما كان هنالك عوامل جانبية أخرى لم يتسع المجال لذكرها.

الهوامش :

1- الموطأ ، كتاب حسن الخلق / 8 ، قال ابن عبد البر : هو حديث مدني صحيح.

2- مسلم ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب 139.
3- متفق عليه ، والرواية للبخاري ، كتب العلم ، باب 12.

موقف أهل السنة والجماعة من العلمانية

بقلم : محمد المصري

من أجـــل بـيان موقف أهل السنة والجماعة من العلمانية (1) هناك كلمة لا نحسب أنها تغيب عن ذهن الـقــارئ الواعي بأمر هذا الدين ، وإن كنا نخشى أن تكون قد تاهت -أو توارت- أثناء الصراع الدائر بين أهل السنة والجماعة والفرق المختلفة الضالة التي تنتسب لهذا الدين.

إن أحد التحديات الخطيرة -إن لم تكن أخطر هذه التحديات على الإطلاق- والتي تواجه أهل السنة والجماعة في هـذا العصر لَهِي إسقاط اللافتات الزائفة وكشف المقولات الغامضة وفضح الشعاراتِ الملبسة، التي تتخفى وراءها العلمانية الكافرة التي تبث سمومها في عقول وقلوب أبناء هذه الأمة. ولفضح العلمانية ومواجـهـتـهـا لابد أولاً أن يـصــل أمر المواجهة إلى المستوى المطلوب من الوضوح في نفوس أهل السنة.. فإنه بدون هذا الوضوح تعجز تجمعات أهل السنة -ويعجز علماؤها- عن أداء واجبها في هذه الفترة الحرجة ، وتتأرجح هي أمام التجمعات الجاهلية -ومنها العلمانية- ، حيث تحسبها تجمعات ليست بكافرة ، وبالتالي تفقد تجمعات أهل السنة أهدافها الحقيقية بفقدانها لتحديد نقطة البدء في مواجهة هذه التجمعات الجاهلية من حيث تقف هذه التجمعات الجاهلية فعلاً، لا من حيث تزعم، والـمـسـافــة بعيدة بين الزعم والواقع.. بعيدة جداً.

لابد من توضيح للحقائق وتحديد للمفاهيم :

ونظراً لما أصاب كثيراً من التصورات الإسلامية من انحراف وغبش في أذهـان الناس في هذا العصر ، ولما يثيره أعداء الإسلام -الظاهرون منهم والمتسترون- من شبهات وأباطيل ، فإن من الضروري أن يقوم أهل السنة والجماعة بتجلية تلك التصورات ، وكشف هذه الشبهات في كلمة موجزة عن حقيقة العلمانية الكافرة ، وبيان أن التوحيد الذي هو أعظم حقيقة في التصور الإسلامي -بل في الوجود كله- هو في الوقت ذاته أكبر نقيض للعلمانية. ومن ثَم كان لابد من معرفته حق المعرفة والتأكيد عليه في جميع مراحل الدعوة إلى الله ، مع بيان سبيل إحياء الأمة في التمسك واتباع مناهج وأصول أهل السنة والجماعة ، وإذا كان معنى "لا إله إلا الله" الكفر بالطاغوت والإيمان بالله ، وخير تعريف للطاغوت مما ذكره الإمام ابـن الـقــيـم -رحمه

الله-:»الطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع ، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله ، أو يعبدونه من دون الله ، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله ، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله«(2).

فإننا نستطيع القول بأن الشرك -الذي ظل عبر التاريخ محور الصراع بين الأمم والرسل- هو عبادة الطاغوت مع الله أو من دونه في أمرين متلازمين :

أ- الإرادة والقصد.

ب- الطاعة والاتباع.

أما شرك الإرادة والقصد: فهو التوجه إلى غير الله تعالى بشيء من شعائر التعبد ، كالصلاة والقرابين والنذور والدعاء والاستغاثة تبعاً للتبريرات الجاهلية المردودة القائلة :((مَا نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إلَى اللَّهِ زُلْفَى)) [الزمر:3] ، وطاغوت هذا النوع قد يكون صنماً أو وثناً أو ميتاً أو جنيًّاً أو شيخاً.. الخ.

وأما شرك الطاعة والاتباع :فهو التمرد على شرع الله تعالى ، وعدم قبول حكمه وتحكيمه في شؤون الحـيــاة بعضها أو كلها. وهو مفرق الطريق بين الإسلام والجاهلية ، بين الإيمان والكفر ، كما أنه الـسـمة المشتركة بين الجاهليات كلها على مدار التاريخ ، وبه استحقت أن تسمى جاهلية مهما بلغ شأنها في الحضارة والمعرفة ، ((أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ)) [المائدة:50]... ((أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ)) [الشورى:21] ، وطاغوت هذا النوع قد يـكـون زعـيـمـــاً أو حاكماً أو كاهناً ، أو قد يكون هيئة تشريعية أو أنظمة وأوضاع وتقاليد وأعراف ، أو مــجـالس نيابية وبرلمانات وقوانين ودساتير وأهواء... الخ.

والواقع أن كلا النوعين من الشرك مــردهـما إلى أصل واحد وهو :تحكيم غير الله والتلقي عن غيره ، فإن مقتضى تحكيمه وحده ألا تـتــوجـــه البشرية إلى غيره بأي نوع من أنواع العبادة والقربات ، وألا تتوجه وتسير في حياتها كـلـهـا إلا وفق ما شرع لها في كتبه وعلى لسان رسله: ((إنِ الحُكْمُ إلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)) [يوسف:40] ، فرد الأمر كله إلى الله واتخاذه وحده حكماً في كل شيء هو بعينه الـعـبــادة الـتـي أمر الله ألا يصرف شيء منها لغيره ، وهذا هو ذات الدين القيم الذي لا يرضى الله تعالى سواه ، وإن جهله أكثر الناس على مدار التاريخ.

إذا تقرر هذا ، فكل ما يجابه هذه الحقيقة أو جزءاً منها فهو طاغوت في أي صورة كان ، وفي أي عصر ظهر ، ولا يكون الإنسان -فرداً أو مجتمعاً- شاهداً ألا إله إلا الله حقيقة إلا بالكفر بالطاغوت والبراءة منه وأهله.

لابد من عبودية إما لله وإما لغيره :

قال ابن تيمية -رحمه الله- في رسالة العبودية : »إن الإنسان على مفترق طريقين لا ثالث لهما، فإما أن يختار العبودية لله، وإما أن يرفض هذه العبودية

فيقع لا محالة في عبودية لغير الله«(3) وكل عبودية لغير الله كبرت أو صغرت هي في نهايتها عبادة للشيطان ، ((أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ)) [يس:60،61] ، يشمل ذلك العرب الذين قال الله تعالى فيهم : ((إن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إلاَّ إنَاثاً وإن يَدْعُونَ إلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً)) [النساء:117] ، ويشمل كذلك كل عبادة لغير الله على مدار التاريخ.

لقد تغيرت ولاشك بعض مظاهر العبادة فلم يعد هناك تلك "الإناث" التي كان العرب في شركهم يعبدونها ولكن عبادة الشيطان ذاتها لم تتغير ، وحلت محل الإناث القديمة أوثان أخـــرى، الــدولــة والــزعـيـم والـمذهب والحزب والقومية والعلمانية والحرية الشخصية والجنس... الخ. عـشـرات من الإنـــاث الجديدة غير تلك الإناث الساذجة البسيطة التي كــان يعبدها العرب في الجاهلية ، تضفي عليها القداسات الزائفة ، وتُعـبـد من دون الله، ويُطاع أمرها في مخالفة الله وفي تغيير خلق الله، وما تغيرت إلا مظاهر العبادة "تطورت"!! ولكن الجوهر لم يتغير ، إنه عبادة الشيطان.

وعلى ضوء هذا الفهم الإجمالي لمعنى الطاغوت والعبادة يتضح لنا المعنى الحقيقي لشهادة "لا إله إلا الله" الذي هو -كما سبق-: الكفر بالطاغوت ، وإفراد الله تعالى وحده بالعبادة.

وانـطــلاقاً من هذا المفهوم -الذي يعتبر في حقيقة الأمر من المعلوم من الدين بالضرورة عند أهــــل الــسـنـــة والجماعة-؛ نستطيع أن نرى حكم الإسلام في العلمانية بسهولة ووضوح ونسـتـطـيع أن نصل بالقضية إلى المستوى المطلوب من الحسم والوضوح في نفوس أهل السنة اللازمين لفضح العلمانية ومواجهتها..

إن العـلـمـانـية باختصار : نظام طاغوتي جاهلي كافر ، يتنافى ويتعارض تماماً مع شهادة "لا إله إلا الله" من ناحيتين أساسيتين متلازمتين :

أولاً : من ناحية كونها حكماً بغير ما أنزل الله.

ثانياً : من ناحية كونها شركاً في عبادة الله.

إن العلمانية تعني -بداهة-: الحكم بغير ما أنزل الله ، وتحكيم غير شريعة الله ، وقبول الحكم والتشريع والطاعة والاتباع من طواغيت أخرى من دون الله ، فهذا معنى قيام الحياة على غير الدين ، ومن ثم فهي -بالبديهة أيضاً- نظام جاهلي ، لا مكان لمعتقده ولا لنظامه ولا لشرائعه في دائرة الإسلام ، بل هو كافر بنص القرآن الكريم: ((ومَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ)) [المائدة:44] ، فهل يبقى بعد هذا مجال للشك أو التردد في الحسم والوضوح اللازمين في نفوس أهل السنة اليوم تجاه العلمانية؟.

الـحـق أنه لا مــجــال لـشــيء من ذلك ، ولكن الغياب المذهل لحقائق الإسلام من العقول والقلوب، و الغبش الكثيف الذي أنتجته الأفكار المنحرفة؛ هذا وذاك هما اللذان يجعلان كثيراً من الناس يثيرون شبهات متهافتة لم تكن

لتستحق أدنى نظر لولا هذا الواقع المؤلم. فمن هذه الشبهات:استصعاب بعض الناس إطلاق لفظ الكفر أو الجاهلية على من أطلقهما الله تعالى عليه من الأنظمة والأوضاع والأفراد ، بذريعة أن هذه الأنظمة -لاسيما العلمانية الديمقراطية- لا تنكر وجود الله ، وبذريعة أن هذه الأنظمة العلمانية الديمقراطية لا تمانع في إقامة شعائر التعبد ، وبحجة أن بعض أفراد الأنظمة العلمانية الديمقراطية يـتـلـفـظـون بالشهادة ، ويقيمون الشعائر من صلاة وصيام وحج وصدقة ، ويـحـتـرمــون مــن يسمونهم برجال الدين (!) ، ويحترمون المؤسسات الدينية.. الخ. وفي ظـــل هذه الشبهات المتهافتة المردودة يستصعب بعض الناس - ومـنـهـم للأســـف الـشـديد بعض من يرفع راية الدعوة الإســـلامـــيـــة اليوم- القول بأن الأنظمة العلمانية الديمقراطية أنظمة كافرة جاهلية ، وأن المؤمنين بها المتبعون لها جاهليون؟
ومن الواضح أن الذين يلوكون هذه الشبهات لا يعرفون معنى "لا إله إلا الله" ، ولا مدلول "الإسلام" ، وهذا على فرض حسن الظن بهم ، وهو ما لا يجوز في حق كثير من المثقفين ، وبالذات بــعــض الذين يرفعون راية الدعوة الإسلامية اليوم ويتعللون بهذه العلل الواهية.
إن تاريخ الــدعــوة الإسلامية وصراع أهل السنة والجماعة المرير عبر القرون ، وإن القرآن الكريم كله من أوله إلى آخره ومثله السنة المطهرة لتقطع الطريق على هذه الشبهة وقائليها.
هل تحمل الـــرســـول -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه العنت والمشقة والحرب والجهاد ثلاثاً وعشرين ســـنـــة مـتـوالـية؟ ، وهل نزل القرآن الكريم موجهاً وآمراً وناهياً طوال هذه السنين من أجل أن يقول الـجـاهـليون باللسان فقط.. لا إله إلا الله ، ويقيموا الشعائر التي يمن دعاة العلمانية على الله أنهم يـسـمحون بها؟!! وما الفرق بين قول قريش:"يا محمد: اعبد آلهتنا سنة ، ونعبد إلهك سنة" ، وبين قول العلمانيين -لفظاً أو حالاً- :نعبد الله في المسجد ، ونطيع غيره في المجالس التشريعية والبرلمان وفي القضاء والتجارة والسياسة؟
أهو شيء آخر غير أن قسمة أولئك زمنية ، وقسمة هؤلاء مكانية أو موضوعية؟
يقول ابن كثير -رحمه الله-في تفسير قوله تعالى : ((أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ)) :
»ينكر الله تعالى على من خرج عن حكم الله المُحْكم ، المشتمل على كل خير ، الناهي عن كل شر ، وعــدل إلى مــا سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يـضـعـونـهـــا بآرائهم وأهوائهم ، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيز خان الذي وضع لهم "الياسق"- وهو عبارة عن :كتاب مجموع من أحكام

قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها ، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه ، فصارت في بنيه شرعاً متبعاً يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، فلا يحكِّم سواه في قليل ولا كثير«(4).
وبناء على ما سبق يتضح أن تلك الشبهة ، شبهة التلفظ بالشهادة وإقامة بعض الشعائر لا وزن لها ولا اعتبار ، ذلك لأنه بعد أن نجحت الجاهلية -مؤقتاً- في تنحية شرع الله من أن يحكم حياة المسلمين في ديارهم ، وحاول أعداء الإسلام إخراج المسلمين عن أصل دينهم إلى المذاهب الإلحادية والمادية ، وبعد أن فشلوا في تنفيذ هذا المخطط وأصابهم اليأس من ذلك لجأوا -بعد التفكير والتدبير- إلى ما هو أخبث وأخطر ؛ لجأوا إلى: اصطناع أنظمة تحكم بغير ما أنزل الله ، وفي الوقت نفسه هي تدعي الإسلام وتظهر احترام العقيدة، فقتلوا إحساس الجماهير ، وضمنوا ولاءها ، وخدَّروا ضميرها ، ثم انطلقوا يهدمون شريعة الله في مأمن من انتفاضتها. ولذلك لا يجرؤ أرباب هذه الأنظمة العلمانية الديمقراطية على التصريح بأنهم ملحدون أو لا دينيون ، أو أنهم ضد شريعة الله ، بينما يصرحون -مفتخرين- بأنهم ديمقراطيون مثلاً.
وتبلورت مقالات العلمانيين وأفكارهم التي تعبر في جوهرها عن حقيقة الجاهلية ، ولكنها وبخبث شديد وتدبير محكم تحاول أن تنتسب إلى الدين بتبجحٍ غريب ومكرٍ وضيع، وذلك حتى لا ينفر من هذه الأفكار جمهور المسلمين ، فهم يريدون أن تسري العلمانية ببطء في عقول ونفوس جمهور المسلمين سريان السم البطيء الذي يودي بحياة صاحبه دون أن يتنبه له جسده.

أنواع من الجاهليات :

وهذه الرؤية تفيدنا في تقدير موقفنا ، وفي تحديد طبيعة الدعوة الإسلامية كذلك.. يجب أن نعلم أن الجاهلية بعضها يتمثل في إلحاد بالله سبحانه وإنكار لوجوده.. فهي جاهلية اعتقاد وتصور كجاهلية الشيوعيين ، وبعضها يتمثل في اعتراف مشوه بوجود الله سبحانه وانحراف في الشعائر التعبدية وفي الاتباع والطاعة ، كجاهلية الوثنيين من الهنود وغيرهم.. وكجاهلية اليهود والنصارى كذلك.
وبعضها يتمثل في اعتراف بوجود الله سبحانه وأداء للشعائر التعبدية ، مع انحراف خطير في تصور دلالة شهادة "أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله" ، ومع شرك كامل في الاتباع والطاعة ، وذلك كجاهلية من يسمون أنفسهم "مسلمين" من العلمانيين ، ويظنون انهم أسلموا واكتسبوا صفة الإسلام وحقوقه بمجرد نطقهم بالشهادتين وأدائهم للشعائر التعبدية ، مع

سوء فهمهم لمعنى الشهادتين ، ومع استسلامهم لغير الله من العبيد.. وكلها جاهلية.. وكلها كفر بالله كالأولين.. أو شرك بالله كالآخرين.
والعلمانية الديمقراطية تجعل العقيدة والشعائر لله وفق أمــــره ، وتجعل الشريعة والتعامل لغير الله وفق أمر غيره.. وهذا هو الشرك في حقيقته وأصـلـه. لأن الدارس لعقائد الجاهلية العربية يجد -من أول وهلة- أنها لم تكن تنكر وجود الله أبداً، بل كانت توحده في معظم أفعاله تعالى، كالخلق والرزق والتدبير والإحياء والإماتة، ((ولَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ وسَخَّرَ الشَّمْسَ والْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)) [لقمان:25].
وكانوا يقرون بمشيئة الله النافذة في الكون وقدره الذي لا يرد ؛ ((سَيَقُولُ الَذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا ولا آبَاؤُنَا ولا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ)) [الأنعام: 148] ، وأنه يدبر الأمر ، ((ومَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ))[يونس:20]..
وكانوا يؤمنون بالملائكة ، ((وَقَالَ الَذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا المَلائِكَةُ)) [الفرقان:31].
وكان منهم من يؤمن بالبعث والحساب ، كقول زهير :

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم حساب ، أو يعجل فينقم (5)

وكذلك كان لدى الجاهليين العرب بعض الشعائر التعبدية ، منها: تعظيم البيت الحرام ، وطوافهم حوله ، ووقوفهم بعرفات ، وتعظيم الأشهر الحرام. وكذلك ذبحهم ونذرهم لله كما في قصة نذر عبد المطلب ، وإهدائهم للبيت الحرام ، آ وتخصيص شيء من الحرث والأنعام لله ، ((وجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحَرْثِ والأَنْعَامِ نَصِيباً)) [الأنعام:136].
ومن الناحية التشريعية: كانت الجاهلية العربية تقيم بعض الحدود ، كحد السرقة ، فقد ذكر الكلبي ، والقرطبي في "تفسيره": أن قريشاً كانت تقطع يد السارق (6) ، وهو حد معروف في الشرائع السابقة- كما في حديث المخزومية وشفاعة زيد لها- ، وشيء آخر سبقت -بل فاقت- به الجاهلية العربية الجاهليات اللادينية المعاصرة وهو :"حرية التدين" ، فكان منهم الحنفاء الذين يتعبدون ببقايا دين إبراهيم -عليه السلام- ، وكان منهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وكان منهم عبدة الكواكب ، وعباد الأوثان ، وبعضهم كان يعبد الجن أو الملائكة.

موقف الإسلام من الجاهليات بأنواعها :

ولكن -وهذا هو المهم- ، بماذا حكم الله على هذا المجتمع؟ إن الله تعالى حكم على هذه البيئة وعلى الواقع الأرضي حينئذ بأنها كفر وجاهلية ، وعد تلك الأمور جميعها صفراً في ميزان الإسلام ، ولذلك نشبت المعركة الطويلة بينهم وبين رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، واشتد النزاع ، معركة شرسة ونزاع حاد ، حتى أن السيف كان الحكم الأخير.

والشيء المثير أيضاً :أن موضوع هذه المعركة العنيفة الطويلة لم يكن سوى كلمة واحدة ، هي كلمة:"لا إله إلا الله" ، كلمة يصر عليها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى أقصى حدود الإصرار ، وترفضها الجاهلية إلى أبعد مدى للإنكار والرفض..
لماذا؟.. لأنه منذ اللحظة الأولى حين دعاهم النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى شهادة (أن لا إله إلا الله) ، كان الجواب الفوري : ((أَجَعَلَ الآلِهَةَ إلَهاً واحِداً إنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ)) [ص:5] ، فالقضية واضحة في أذهانهم : إن الالتزام بهذه الكلمة معناه الرفض الجازم والتخلي الكامل عن كل ماعدا الله من معبوداتهم وطواغيتهم المختلفة ، طاغوت الأوثان وطاغوت الزعامة وطاغوت القبيلة وطاغوت الكهانة وطاغوت التقاليد.. الخ ، والاستسلام الكامل لله ورد الأمر كله ؛ جليله وحقيره وكبيره وصغيره.. إلى الله تعالى وحده لا شريك له. كذلك فإن بيننا اليوم -ممن يقولون : إنهم مسلمون- من يستنكر وجود صلة بين العقيدة والأخلاق وبخاصة أخلاق المعاملات المادية.. وبيننا اليوم حاصلون على الشهادات العليا من جامعاتنا وجامعات العالم يتساءلون أولاً في استنكار : ما للإسلام وسلوكنا الشخص؟ وما للإسلام والعري على الشواطئ؟ وما للإسلام وزي المرأة في الطريق؟ وما للإسلام وتصريف الطاقة الجنسية بأي سبيل؟ وما للإسلام وتناول كأس من الخمر لإصلاح المزاج؟ وما للإسلام وهذا الذي يفعله "المتحضرون"؟ ، فأي فرق بين هذا وبين سؤال أهل مدين : ((أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا)) [هود:87].
وهم يتساءلون ثانياً ، بل ينكرون بشدة وعنف أن يتدخل الدين في الاقتصاد ، وأن تتصل المعاملات بالاعتقاد ، أو حتى بالأخلاق من غير اعتقاد.. فما للدين والمعاملات الربوية؟ وما للدين والمهارة في الغش والسرقة ما لم يقعا تحت طائلة القانون الوضعي؟ وما للدين والسياسة والحكم؟ ، لا بل إنهم يتبجحون بأن الأخلاق إذا تدخلت في الاقتصاد تفسده!! فلا يذهبن بنا الترفع كثيراً على أهل مدين في تلك الجاهلية الأولى ؛ ونحن اليوم في جاهلية أشد جهالة ، ولكنها تدعي العلم والمعرفة والحضارة ، وتتهم الذين يربطون بين العقيدة في الله والسلوك الشخصي في الحياة والمعاملات المادية في السوق والسياسة والحكم.. تتهمهم بالرجعية والتعصب والجمود ، وبعد أن استهلكت هذه الألفاظ أضافت الجاهلية اليوم وصفهم بالتطرف!!
أليس هذا هو بعينه ما يريده رافعو شعار "الدين لله والوطن للجميع" ، وشعار "لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين" من أدعياء الإسلام من العلمانيين أو غيرهم؟. إن من عادة المنافقين والزنادقة من المنتسبين لهذا الدين عدم الإنكار الصريح والواضح وعدم إظهار العداء السافر للإسلام ، وهم يسعدون بسلاح التلبيس والتمويه للالتفاف حول المسلمين لحين المعركة الفاصلة ، حتى يفاجئوا المسلمين على حين غرة ، من أجل ذلك يرفع هؤلاء الزنادقة من العلمانيين وأشباههم شعارات يحاولون بها خداع أكبر عدد ممكن من

المسلمين ، وتهدئة نفوس القلة التي قد ساورتها الشكوك تجاه نوايا هؤلاء الذين يرفعون شعارات العلمانية ، بينما يسعون بواقعهم العملي لاقتلاع الإسلام من جذوره ولكن رويداً رويداً!!
فارتفعت لذلك شعارات "المدرسة العقلانية" ، وشعار "حكم الشعب للشعب" ، وشعار "الحرية الشخصية" ، وشعار "الأمة مصدر السلطات" ، وشعار "حرية الثقافة والفكر" ، وحاول البعض منهم تهدئة بعض مشاعر الإسلاميين فرفعوا شعار :"تطوير الشريعة" ، "مرونة الشريعة لتلبية حاجات العصر" ، وشعار "تقنين الشريعة" ، وبعد أن نفد صبر بعضهم أعلنوها صريحة ورفعوا شعار "فصل الدين عن الدولة" ، و "لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين" ، و "الدين لله والوطن للجميع" ، و"دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله" ، أوَ ليس هذا أيضاً ما يطبقه الذين يجعلون للدين برامج تسمى برامج "روحية" ضمن أجهزة الإعلام الشيطانية؟ ، والذين يجعلون أحكاماً للأحوال الشخصية ضمن قوانين الحكم الجاهلية ، والذين يجعلون في كل صحفهم ومجلاتهم العلمانية الجاهلية صفحة يسمونها صفحة الفكر الديني؟! ويقولون: إن مكان الدين هو المسجد فقط ، ويظهرون لعامة المسلمين أنهم يحجون لبيت الله في العمر مرة ، ويتعمدون إبرازها في أجهزة إعلامهم ، بينما هم يقصدون بيوت أعداء الله شرقاً وغرباً كل حين ، يتلقفون منهم المناهج ، ويتلقون التشريعات والأوامر والنواهي والحلال والحرام!!

سؤال يبحث عن جواب محدد :

إننا نتوجه بالسؤال إلى هؤلاء العلمانيين.. إلى كل من يدعي الإسلام من هؤلاء ، فنقول :
إذا أخرجنا -على سبيل التحكم- جزءاً من النشاط الإنساني في الحياة -إما السياسة وإما غيرها- عن دائرة الإسلام.. فمن أين نتلقى منهج وقيم وموازين وتشريعات هذا الجزء؟
وأياً ما كان الجواب فإن نتيجته ومؤداه واحد لا ريب فيه ؛ التلقي عن غير الله والطاعة والاتباع لغير الله.
والنتيجة هي الشرك بالله. وهل هناك صورة من صور الاعتراف بالشرك أصرح من هذه؟ أعني شرك الطاعة والاتباع!! إنه شرك في عبادة الله ، وإن كان الذين يمارسونه قد يجهلون معنى عبادة الله وحده ، وما ذلك بغريب على الجاهليين ، »فإن عدي بن حاتم -رضي الله عنه-- في الجاهلية لم يكن يتصور أن ذلك عبادة ، فإنه لما دخل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، "تلا -صلى الله عليه وسلم- قوله:((اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ ورُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ)) ، فقال عدي -وكان نصرانياً- :يا رسول الله : لسنا نعبدهم ، قال : أليس يحلون لكم ما حرم الله فتحلونه ، ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟ قال : بلى. قال النبي -صلى الله عليه وسلم- : فتلك عبادتهم «.(7) قال ابن تيمية -رحمه

الله-تعليقاً على ذلك : »قد جعله الله ورسوله شركاً وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم«(8).

نتائج لابد منها :

إن العلمانية التي ولدت وترعرعت في أحضان الجاهلية لهي كفر بواح لا خفاء فيه ولا مداورة ولا التباس ، ولكن الخفاء والمداورة والالتباس إنما يحدث عمداً من دعاة العلمانية أنفسهم ، لأنهم يعلمون أنه لا حياة ولا امتداد لجاهليتهم في بلاد المسلمين إلا من خلال هذا التخفي والمداورة والتلبيس على جماهير المسلمين ، وذلك من خلال راياتهم الزائفة التي تخفي حقيقة أمرهم وباطن دعوتهم عن المسلمين ، وتلبس على العامة أمر دينهم وعقيدتهم ، بل وتحفزهم ضد إخوانهم الصادقين الواعين بحقيقة هذا الصراع المنبهين إلى خطره الداهم على الدين وأهله.

إن المعارك والجبهات التي تفتحها الفرق الضالة والمنتسبة لهذا الدين ضد أهل السنة والجماعة ، وأخطرها دائما جبهة الرفض الباطنية. والتي تغذيها وتدعمها القوى والمعسكرات الجاهلية العالمية لتدمير أهل السنة والجماعة -باعتبارهم الخطر الحقيقي والفعال ضد هذه القوى- ، أقول : إن هذه المعارك وهذه الجبهات يجب أن لا ينسى معها أهل السنة والجماعة أن حصونهم لازالت مهددة من داخلها ، وأن القوى العلمانية المتكتلة ضدهم من الداخل والتي تصارعهم في معارك خافية -غالباً- وسافرة -أحياناً- هي التي تمثل الآن جوهر الصراع القائم بين الإسلام والجاهلية في العصر الحديث. وإن أخطر مراحل هذا الصراع هي :مرحلة تعرية هذه القوى العلمانية القبيحة وفضحها أمام المسلمين؛ليستبين لكل مسلم سبيل المجرمين الذين يحاولون خداعهم وتلبيس أمر دينهم عليهم وهم لا يعلمون.

أما آن لأهل السنة والجماعة أن يتنبهوا لهذه الأخطار الماحقة في الداخل والخارج ، والتي تهددهم في دنياهم وآخرتهم؟ أما آن لهم أن يتكتلوا هم أيضاً دفاعاً عن وجودهم وعقيدتهم ضد تجمعات الجاهلية الشرسة؟.

أما آن لهم -أو لكثير منهم- أن يتخلوا عن معاركهم الوهمية وخلافاتهم الجانبية والشكلية ليفرغوا طاقاتهم ، ويركزوا جهودهم المشتركة -المادية والمعنوية- لمواجهة هذه التحديات التاريخية والمعارك الفاصلة الحقيقية والجذرية؟ أما آن لهم هذا؟ ؛ ((أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ومَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ)) [الحد يد / 16].

-نسأل الله الهدى والرشاد ، فمنه وحده التوفيق والسداد وهو على كل شيء قدير.

الهوامش :

1- لفظ العلمانية ترجمة خاطئة لكلمة (secularism) في الإنكليزية أو (secularite) بالفرنسية ، وهي كلمة لا صلة لها بلفظ (العلم) على الإطلاق ،

فالعلم بالإنكليزية والفرنسية معناه (science) ، والمذهب العلمي يطلق عليه كلمة (scientism) ، والترجمة الصحيحة لكلمة (secularism) هي: "اللادينية" أو "الدنيوية" ، وتقول دائرة المعارف البريطانية مادة (secularism) : »هي حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس وتوجيههم من الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بهذه الدنيا وحدها«.
ولذلك فإن المدلول الصحيح للعلمانية هو (إقامة الحياة على غير الدين) سواء بالنسبة للأمة أو للفرد.

2- إعلام الموقعين 1 / 50.
3- مقدمة رسالة العبودية / 6.
4- تفسير القرآن العظيم 2 / 67.
5- شرح ديوان زهير / 81.
6- أضواء البيان للشنقيطي 3/392.
7- انظر رواياته في الدر المنثور : 3 / 230 ، وأصله في الترمذي : كتاب التفسير ، وسنده صحيح.
8- فتح المجيد : 86 نقلاً عن الإيمان.

الحضارة المعاصرة ... الوجه الأخر

إعداد : ضيف الله الضعيان

".. والرسالة روح الـعـالـم ونـوره وحـيـاته ، »فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور؟!« »والدنيا مظلمة ملعونة ، إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة.."«

ابن تيمية

وأخيراً اعترف الغرب

ترجمة وتعليق : محمد عثمان عقال

مجلة "بلين تروث" (the plain truth) مـجـلة تبشيرية تنصيرية ، تصدر بسبع لغات ، ويوزع منها 20 مليون نسخة شهرياً مجاناً ، وقـد ورد فـي عــدد أكتوبر 1987 منها مقال حول انحطاط المستوى التعليمي في الغرب تحت عنوان : (أعيدوا دور الوالدين في التعليم). وقد وجدنا من المفيد ترجمة هذا المقال لما فيه من حقائق تحتاج إلى معرفة.

المدارس العليا تخرج جهلة وأشباه متعلمين! شباب لا يستـطـيـعـون قراءة صحيفة أو كتابة رسالة مفهومة إلا بصعوبة بالغة! ماذا يحدث في مدارس اليوم؟!

مثال واحد يوضح المشكلة..

طلبة الولايات المتحدة وضـعـوا صـحــراء سـيـناء في فيتنام! بعضهم الآخر قال : إن رئيس وزراء كندا السابق "بيير ترودو" كان لاعب هـوكــي مـن مـديـنة مونتريال! فهل هناك أية غرابة إذا كان أولياء الأمور والمربون قلقين من نوعية ومستوى الـتـعـليم لدى الشباب؟

وقد كشفت إحصائيات أخرى أجريت في أمريكا في صفوف طلبة فـي ســن السابعة عشرة، قام بها "المعهد القومي لتقويم التقدم التعليمي" عن حقائق مُرَّة :

* ثلثان منهم لم يستطيعوا تحديد تاريخ الحرب الأهلية في أمريكا في الفترة ما بين1850-1900م.

* وثـلـث آخــر كـانـوا يجهـلــون أن كولـومبس أبحر للعالم الجديد قبل 1750م ، ثم إن إحصائية أخرى أكثر حداثة وجدت أن 20% من طلبة أمريكا لا يستطيعون تحديد موضع أمريكا من خريطة العالم!

وكما قال مدير المعهد القومي للدراسات الجغـرافـية فـي الولايات المتحدة وفي أسلوب مفعم بالمرارة: نحن الآن قد وصلنا إلى حد أن "جوني" ليس عاجزاً عن القراءة فحسب ، بل إنه لا يعرف حتى موضع قدميه!

والأغرب من هذا: أن كثيراً من طلبة المعاهد فـي أمــريكا -ممن هم في سن التاسعة عشرة- يجهلون من هي الأطراف المتصارعة في الحرب العالمية الثانية.

وهذا الجهل ليس محصوراً في الولايات المتحدة فقط ؛ ففي دراسة بريطانية حديثة جاء أن أكثر من نصف الطلبة الذين تتراوح أعمارهم بين 15 - 11 عاماً لا يستطيعون فهم تعليمات إنذار الحريق البسيطة ، وأن 44% منهم غير قادرين عـلـى حـل رمـوز جــداول الحافلات ووسـائــل الانتقال ، هذا وعلى الرغم من إدخال بعض التحسينات الطفيفة عـلـى نـظـام التعليم! فإن المشاكل الأساسية لا تزال قائمة.

الحلقة المفقودة :

يؤيد كثير من دعاة الإصلاح في الولايات المتحدة فكرة العودة إلى النظام التأديبي القديم في المدارس ، ويرون أنه لابد من البدء مرة أخرى بتدريس الأساسيات. في حين أن الغالبية العظمى ترى أن هذا الانهيار يعود إلى ضعف الحوافز لدى المدرسين ، وأنهم بحاجة إلى زيادة رواتبهم.

ولكن كل هــذه الحلول تنقصها مــادة وحيدة مفقودة تجاهلتها التقارير ، وهي: دور أولياء الأمور في التربـيــة والـتـعـلـيـم. كما أشار إلى ذلك وزير التعليم السابق في الولايات المتحدة "تيرل بال" ، حيث قال بحق :

»إن انهيار مستوى التعليم في المدارس الأمريكية في بعض من جوانبه يعكس -إلى حد ما- طبيعة التقلبات على مستوى الأسرة ، فلدينا أسر كثيرة يعمل فيها كلا الوالدين ، وأسر كثيرة أيضاً لا يديرها إلا شخص واحد (أباً أو أماً)«.

ونتيجة للسلبيات المترتبة على مثل هذه الحالات فإن الآباء قليلاً ما يهتمون بالعناية بأولادهم، فهم مثلاً لا يلتفتون إلى متابعة تطور سير دراسة ولدهم إلا حينما يفاجئ أمه بقوله : أماه.. إنني لا أفهم شيئاً.
حتى المدرسون بدورهم أصبحوا يتذمرون من اللامبالاة التي يتصف بها سلوك الآباء. ففي مقال لـ "فيكتور فوجس" في جريدة "وول ستريت جورنال" يقول :
»مما لا شك فيه أن اهتمام الآباء بأبنائهم ، والقيم التي يحرصون على غرسها فيهم هي من العوامل الأساسية التي تحسم مدى نجاح الطفل في المدرسة ، فنحن -مثلاً- نجد أن أبناء العائلات الآسيوية التي وفدت حديثاً إلى أمريكا غالباً ما يتفوقون على أترابهم في المدارس الأمريكية والكندية«. ويستطرد مستر فوجس قائلاً :
»إن تفوق الطلبة الآسيويين لدليلٍ واضح بأن الاجتهاد في التحصيل ، واحترام المدرس ، والمشاركة الفعالة من الآباء في متابعة تعليم الطفل يبقى لها الأثر الإيجابي الكبير في التفوق«.
إن الآباء الذين يهتمون بتعليم أبنائهم يحصلون على نتائج إيجابية دائماً ، وأحسن مثال على ذلك هو: اليابان ، فالأم اليابانية تهتم كثيراً بتربية طفلها ، كما يقول الأستاذ جورج دي فوس ، وهو انثروبولوجي من جامعة كاليفورنيا ظل يدرس حضارة اليابان لمدة 22 سنة ، فهو يقول :
»إن الأم اليابانية عنصر كبير الأهمية والتأثير في تربية أطفالها ، لأنها تجعل من نفسها المسؤول الوحيد عن تعليمه ، وتدعم بقوة دور المدرسة ، وإن تربية الطفل تبدأ منذ الولادة«.
إن السبب الرئيسي في انهيار مستوى تعليم الشباب بشكل عام في الدول الصناعية هو عدم مشاركة الآباء في مسار التعليم ، فإن الأب يرسل ابنه إلى المدرسة بين الخامسة والسادسة من عمره ، ثم ينتظر من الحكومة أن تتكفل بمهمة تربية وتعليم هذا الطفل.

-انتهى المقال-

***

هذه حقائق يعترف بها عقلاء الغرب بعد أن أصبح من الصعوبة إخفاؤها ، ونسوقها لنؤكد بها تسيباً موازياً في التربية والتعليم في البلاد العربية والإسلامية ، حيث إن المستوى التربوي والتعليمي في حالة يشكو منها كل من هو مطلع على حقائق الأمور.
وإن معالجة الماديين لمشاكلهم الاجتماعية تظل محكومة بنظرتهم المحدودة ، وقد تكون الحقيقة على مقربة منهم ، ولكن يجدون الاعتراف بها صعباً ، لأنه قد يهدم الأساس الاجتماعي الذي ينطلقون منه برمته.

فلا شك أن التمرد على الفطرة ، والتحدي الوقح لكل العقائد والأعراف ، والتنصل من كل ما تواطأت عليه البشرية ومصلحوها بحجة التطور والحرية ، والخروج بالمرأة عن وظيفتها التي خلقها الله ، كل ذلك من الأسباب التي ينتج عنها ما اشتكى منه القوم ، إن لم يكن هو السبب الرئيسي.
ومع أن هذه النتائج يدركها أبسط معلم في مدرسة مارس مهنة التعليم ، ويستطيع أن يقيم عليها أمثلة لا حصر لها ؛ فإننا وللأسف الشديد ماضون في أغلب بقاع العالم الإسلامي في تشجيع المرأة على الخروج من بيتها بحجج يلوكها دعاة الفتنة وأهل الأهواء ، وبالتقنينات التي تدعم ذلك الخروج بشتى السبل ، ويساند ذلك إعلام لا يفتأ ليل نهار عن التحريض والإغواء ووصف الوقاحة والجرأة على الذنب والشذوذ بالشجاعة والعبقرية والكفاح.
فهل ستكون النتيجة بعد كل ذلك أحسن مما توصل إليه الغرب الذي داس الأسرة وروابطها ، وسار شارداً لا يدري إلى أين المصير؟!.

تمت بحمد الله